


آني إرنو

# شغف بسيط

@ketab_n

منشورات الجمل

رواية

آني إرنو

# شغف بسيط

رواية

ترجمة

إسكندر حبش و محمد جليد

منشورات الجمل

آني إرنو: شغف بسيط

آني إرنو: شغف بسيط، رواية، ترجمة: إسكندر حبش ومحمد جليد
الطبعة الأولى ٢٠١٩

**Annie Ernaux: Passion simple**



تلفون وفاكس: ٣٥٣٣٠٤ ـ ٠١ ـ ٠٠٩٦١
ص.ب: ٥٤٣٨ ـ ١١٣ بيروت ـ لبنان



Postfach 1127 - 71687 Freiberg a. N. Germany
www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

**«مجلة ـ نحن الاثنان ـ أكثر بذاءة من (الماركيز دو) ساد»**

رولان بارت

# آني إرنو والكتابة الحميمية

منذ دخولها إلى عالم الأدب مع رواية «الساحة» عرفت الكاتبة الفرنسية آني إرنو جميع أنواع النقد. من المديح الكبير الذي حظيت به (وفوزها بجائزة «فيمينا»، وهي واحدة من أكبر الجوائز الأدبية في فرنسا) إلى التهفيت الذي وصل إلى حدّ الشتائم، على اعتبار أن قسماً كبيراً من هذا النقد، لا يرى في ما تكتبه سوى يوميات جريئة لا علاقة لها بالكتابة الأدبية الحقيقية. تتمثل هذه «الجرأة» في أن الكاتبة تعرض في جميع رواياتها، العديد من التفاصيل الحياتية التي عرفتها وتعرضت لها وعاشتها، من دون مواربة ومن دون إخفاء للحقائق، سوى في إخفاء بعض الأسماء الحقيقية (أسماء الشخصيات والأماكن) كي لا تقع في المحظور، بمعنى تجنب ردود الفعل التي قد تؤدي بها إلى المثول أمام المحكمة.

في أي حال، أدب إرنو ينتمي اليوم إلى تيّار أدبي كبير، يعرف صداه الواسع في المشهد الروائي الفرنسي المعاصر ويعرف باسم «التخييل الذاتي»، الذي بدا أول ما بدأ مع الكاتب سيرج دوبرونسكي في العام ١٩٧٨، ليعرف صدى واسعا عند العديد من الكتّاب المعاصرين. هذا التخييل، يعرف أيضاً باسم «أدب السُّرّة» وهو تعبير أطلقه النقد ليزيد إمعاناً في «إحتقار» هذه الكتابة، إذ يجدون أنها لا تقدم شيئاً سوى حياة الكاتب الخاصة التي لا تهمّ أحداً، بمعنى ابتعادها عن طرح الكثير من القضايا التي يعرفها المجتمع المعاصر. في أي حال، ومهما يكن من أمر، كلّ تاريخ الأدب الروائي يبدو وكأنه أدب هذه «الأنا» (ذا ما استعدنا مقولة الكاتب والمفكر الفرنسي «مونتاين» Montaigne)، أي ما من كتابة في العمق، سوى كتابة هذه الأنا التي تتشظى والتي نحاول اكتشافها من جديد عبر الكلمات التي نكتبها.

في روايتها هذه، التي أمامنا، تروي إرنو قصة علاقة غرامية «عابرة»، بمعنى وبرغم كلّ الشغف الذي كانت تعيشه الكاتبة تجاه هذا الرجل (الذي تسميه أ. في كتابها) إلا أنها كانت علاقة محكومة «بالفشل» أي أنها علاقة ستنتهي ذات يوم. لكن ما بين البداية وما بين نهاية هذه العلاقة، تدخل

إرنو عميقاً في رواية هوسها وهواجسها والتفاصيل التي كانت تقوم بها لكي تتبرّج وتتزّين، لتقدم صورة فعلية عن «الشغف المعاصر» فيما لو جاز التعبير.

هو شغف إرنو، الذي يقودها إلى نسيان كلّ شيء حولها، في اللحظة التي تعيش فيها هذه القصة، على الرغم من أن «الشريك» لا يبدو غارقاً في عاطفته إلى هذه الدرجة التي نجدها عن الكاتبة. صحيح أن إرنو تكتب هواجسها هي، عواطفها هي، لكن ـ في المقابل ـ وعبر المقاطع الصغيرة التي ترويها عن أ. نشعر بأن هذه العلاقة ـ أو هذا الشغف ـ لم يكن بالنسبة إليه سوى فعل جنسي خارج إطار المؤسسة الزوجية. علاقة يقبل بها الطرفان، وإن كانت عند الكاتبة أكثر عاطفة وأكثر حفراً في وجدانها.

من هذه القصة أيضاً، تطرح إرنو في نهاية كتابها، سؤالا جميلاً وكبيراً عن معنى الكتابة، حين تتحدث عن السيرة الذاتية وعن مدى ارتباطها بالكتابة الروائية، وكأنها في طرحها هذا، تحاول الرد على النقد الذي يُهفّت هذه الكتابات والذي لا يريد أن يعترف بأهليتها وبحقها في الوجود. ومع هذه الأحكام المسبقة، التي تحاكم هذا النوع من الأدب، إلا أننا لا نستطيع المرور من أمامه وعدم الالتفات إليه. لا يمكننا أن نبعده بتاتا عن

المشهد الكتابي الروائي الفرنسي والأوروبي الذي عرف ازدهاراً واسعاً، حتى أصاب بعض الأدب العربي المعاصر.

ومع ذلك يبدو القارئ العربي أحياناً، بعيداً عن هذا الأدب، على اعتبار أنه يريد دائماً «قضايا كبيرة» تحاكي مشكلات الكون، بينما ينسى الأساسي: تفاصيل هذا الإنسان بكل «سقطاته» التي تبدو في الكثير من الأحيان أهمّ من جنوحه نحو الخلود.

أقول هذا، وأتذكر سؤالا طرحته مرة عليّ «صديقة افتراضية»، بعد أن ترجمت رواية سابقة لأني إرنو وهي رواية «الاحتلال» (التي صدرت عن «منشورات الجمل» أيضاً). سألتني في كلامها، وأعتقد بتقزز شممته يفوح من عبارتها: «لماذا ترجمت هذه الرواية»؟ وكأنها تريد القول، إنني ارتكبت عملاً مشيناً في نقلي إلى العربية رواية ترتكز على علاقة جنسية بحتة، ولا تروي سوى عن هواجس امرأة في علاقتها بالعضو الذكري للرجل التي ترتبط معه بعلاقة عابرة.

ما يدفعني اليوم أيضاً إلى ترجمة رواية أخرى لهذه الكاتبة، هو هذه العلاقة ذاتها، أي هواجس امرأة في علاقتها بالآخر، جرأة امرأة في التعبير عمّا تريد قوله بدون مواربة

وبدون اللجوء إلى التورية. بمعنى آخر، نحن أمام كاتبة تذهب رأسا إلى هدفها، ضاربة عرض الحائط كلّ التركيبات الاجتماعية المتوارثة، وكل الأحكام المسبقة لا عن الإنسان فقط، بل أيضاً عن الأدب الذي يبقى الوسيلة الكبرى للغوص عميقا في ثنايا الروح الإنسانية. بهذا المعنى، ربما كنت استعيد هذه الجملة التي تكتبها إرنو في بداية روايتها هذه، إذ تقول: «يتراءى لي أن على الكتابة أن تميل إلى هذا الأمر، إلى هذا الانطباع الذي يولده المشهد الجنسي، إلى هذا القلق وإلى هذه الدهشة، إلى تعليق الحكم الأخلاقي».

«شغف بسيط» وعلى الرغم من «بساطة» الكتابة، تنجح فعلا في طرح العديد من هذه الأسئلة الوجودية التي تلفنا، تعرف كيف تطرح السؤال «الفلسفي» حول علاقتنا بالآخر، بالجنس، وحتى بكتابة هذه القضية الجنسية، التي تسيطر على غريزة الإنسان والتي هي «المحرّك» الأكبر للكثير من دوافعه.

ثمة متعة في هذه الكتابة. ثمة متعة أيضاً في القراءة. وبالتأكيد كانت هناك متعة في نقل هذا النص إلى العربية. أعتقد، ليس على الأدب أن يكون دائماً أدبا يريد تغيير

الكون. بل يمكنه أن ينطلق من هذه اليوميات العادية، ليدخلنا إلى قلب النفس البشرية. وهذا ما فعلته آني إرنو في جميع كتبها.

**إسكندر حبش**

# شغف بسيط

هذا الصيف، شاهدت للمرّة الأولى، فيلماً مصنفاً ضمن خانة «X» على شاشة التلفزيون، على محطة «كانال بلوس». لم يكن لتلفزيوني جهاز فك الرموز، فبدت الصور على الشاشة مشوشة، ومكان الحوارات كنّا نسمع ضجة غريبة، وتشويشاً، وتموجات، نوعاً من لغة أخرى، ناعمة ومتقطعة. كان يمكننا أن نميّز شكل امرأة ترتدي مشدّاً وجوارب، رجلاً. كانت القصة غير مفهومة ولا نستطيع أن نتكهن منها أيّ شيء، لا من الحركات ولا من الأفعال. اقترب الرجل من المرأة. ظهرت لقطة مكبرة، فبان عضو المرأة، واضحاً في لمعان الشاشة، ومن ثم عضو الرجل، المنتصب، الذي انزلق في عضو المرأة. خلال فترة لا بأس بطولها، أُظهرت عملية الولوج والخروج، للعضوين، من شتى الزوايا. عاد العضو الذكري ليظهر في يد الرجل، بينما انتشر المني على بطن المرأة. لا بدّ أن نعتاد حقاً على هذه الرؤية، إلا أن

مشاهدتها للمرة الأولى تبدو مثيرة للمشاعر. عصور وعصور، ومئات الأجيال، قد مرّت، إلا أننا الآن، فقط، يمكننا رؤية أمر مماثل: عضو امرأة وعضو رجل متحدان، المني - ما لم نكن نستطيع مشاهدته من دون أن نموت تقريباً - أصبح سهل الرؤية مثل مصافحة الأيدي.

يتراءى لي أن على الكتابة أن تميل إلى هذا الأمر، إلى هذا الانطباع الذي يولده المشهد الجنسي، إلى هذا القلق وإلى هذه الدهشة، إلى تعليق الحكم الأخلاقي.

بدءاً من شهر أيلول (سبتمبر) من العام الماضي، لم أفعل شيئاً سوى انتظار رجل: أن يتصل بي وأن يأتي إلى منزلي. كنت أذهب إلى السوبر ماركت (المتجر الكبير)، إلى السينما، وكنت أرتدي ثيابا مكوية على البخار، أقرأ، أصحح المسابقات، أي أتصرف بالضبط كما عمّا ذي قبل، لكن من دون أي إدمان طويل على هذه الأفعال، إذ كان ذلك، بالنسبة إليّ، أمراً مستحيلاً، ما عدا ذلك السعر للمجهود المرعب. كنت أشعر، وبخاصة حين أتكلم، أنني أعيش على سجيتي. كانت الكلمات والجُمل، وحتى الضحكة، تتشكل في فمي من دون أي مشاركة حقيقية لتفكيري أو لإرادتي. لم

تعد لدي سوى ذكرى مبهمة عن نشاطاتي، عن الأفلام التي شاهدتها، عن الناس الذين التقيت بهم. كان مجموع تصرفاتي أمراً زائفاً. الأفعال الوحيدة التي كنت أُلزم بها إرادتي، رغبتي، وشيئاً ما، يجب أن يُسمى الذكاء الإنساني (التخطيط، التقييم مع أو ضد، النتائج)؛ كلّ هذا، كان على علاقة مع هذا الرجل:

قراءة مقالات في الصحيفة عن بلده (كان غريباً)

اختيار أدوات الزينة والتبرج

كتابة رسائل له

تغيير شراشف السرير ووضع الزهور في الغرفة

تدوين ما يجب ألا أنسى قوله له، في المرة التالية (حين نلتقي)، وما هو جدير بإثارة اهتمامه

شراء الويسكي، الفاكهة، أطعمة صغيرة متنوعة من أجل سهراتنا معاً.

تخيّل الغرفة التي سنمارس الحب فيها حين وصوله.

خلال محادثاتي، كانت المواضيع الوحيدة التي تثقب لامبالاتي، هي على علاقة مع هذا الرجل، مع وظيفته، البلاد التي يأتي منها، الأماكن التي زارها. لم يكن الشخص الذي يُحدثني، يشكّ بأن اهتمامي الفجائي الكثيف بكلماته لا

علاقة له بطريقته في الحديث، ولا حتى قليلاً، بالموضوع عينه، بل لأنه ذات يوم، في الواقع، وقبل عشر سنوات من لقائي به، كان «أ» في مهمة في «هافانا»، وربما دخل بالضبط إلى ذاك الملهى الليلي، «الفيورنتيدو»، حيث ـ وبعد أن يحفزه انتباهي ـ يبدأ وصفه لي بتفاصيل وافرة. الأمر عينه، حين أقرأ، كان للجُمل التي تستوقفني، سمة علاقة بين رجل وامرأة. تراءى لي أنها كانت تخبرني شيئاً ما عن «أ»، وتعطي معنى أكيداً لما كنت أرغب في تصديقه. من هنا، أن تقرأ في كتاب «حياة وقدر» لغروسمان بأنه «حين نقع في الحب، فإننا نغلق أعيننا حين نقبل»، يحملني ذلك إلى تخيل أن «أ» يحبني لأنه يقبلني بهذه الطريقة. أما باقي الكتاب، لاحقاً، فيعود ليصبح شبيهاً بأن كلّ نشاط كان بالنسبة إليّ، خلال سنة، وسيلة لاستهلاك الوقت بين لقاءين.

لم يكن لدي أي مستقبل آخر سوى انتظار اتصاله الهاتفي المقبل كي يحدد موعداً للقائنا. كنت أحاول الابتعاد أقلّ ما يمكن عن واجباتي المهنية ـ التي كان يعرف جدولها ـ خاشية دائماً أن يفوتني اتصال منه خلال غيابي. كنت أتجنب أيضاً أن استعمل المكنسة الكهربائية أو مجفّف الشعر مخافة أن تمنعاني من سماع رنين الجرس، الذي كان يكتسحني بأمل

لا يدوم غالباً سوى لحظة إمساكي ببطء، بسماعة الهاتف وقولي: ألو. حين أكتشف بأن (المتكلم) ليس هو، أشعر بخيبة كبيرة، أعتبر فيها الشخص الموجود على الطرف الآخر من السلك، مرعباً. ما أن أسمع صوت أ.، حتى يتبدد ـ وبسرعة ـ انتظاري غير المحدود، الأليم، الحسود بالطبع، لدرجة أني أشعر بأني كنت مجنونة وها أنا أعود إلى طبيعتي. أشعر بالصدمة، في العمق، من عدم معنى هذا الصوت ومن أهميته اللامحدودة المتواجدة في حياتي.

لو أسرّ لي بأنه سيصل بعد ساعة ـ «فرصة سانحة»، أي ما يشكل حجة كي يتأخر من دون أن يثير شكوك زوجته ـ لدخلت في انتظار آخر، بدون تفكير، وحتى من دون رغبة (لدرجة أنني أتساءل ما إذ كنت سأشعر بالنشوة)، ولامتلأت بحيوية حماسية لمهمات لم أكن أنجح في ترتيبها: أخذ دش، إخراج الأقداح، طلاء أظافري، مسح الأرض. لم أكن أجيد سوى الانتظار. كنت مسحورة بهذه اللحظة فقط ـ حيث أن اقترابها يلفني برعب من دون اسم ـ حيث كنت أسمع فرامل السيارة، الباب يصفق، خطواته على عتبة الباطون.

حين كان يترك لي هامشاً أطول، ثلاثة أو أربعة أيام ما بين اتصاله ومجيئه، كنت أجد كلّ الأعمال التي عليّ القيام

بها، أعمالاً مقرفة، كما مآدب الأصدقاء التي يجب أن أذهب إليها، قبل أن أشاهده مجدداً. أرغب فقط في ألا يكون لدي شيئاً آخر لأفعله سوى انتظاره. وكنت أعيش هاجسا متصاعداً بأن يحدث أمر مفاجئ يمنع لقاءنا. في ما بعد ظهيرة يوم، وبينما كنت عائدة إلى منزلي بالسيارة، إذ كان يجب أن يصل من بعدي بنصف ساعة، طرأ على بالي أنه يمكن أن يحدث عائق لي. سرعان ما أقول: «لا أعرف إن كان عليّ التوقف»[1].

إحدى المرات، وبعد أن أصبحت جاهزة، متبرجة، وشعري مصفف، والبيت مرتب، أجدني ـ إن تبقى لي وقت ـ غير قادرة على القراءة أو على تصحيح المسابقات. بطريقة ما، أيضاً، لم أكن أرغب في تشتيت ذهني بأي أمر آخر، إلا انتظار أ.: أن لا أفسد الانتظار. غالباً، ما كنت أكتب على ورقة التاريخ، الساعة و«سيأتي» مع جُمل أخرى،

(١) غالباً ما وازنت ما بين رغبة وحادث (سيارة) قد أتسبب به أو أتعرض له، ربما أصاب بالمرض أو بأمر مأساوي إلى حدّ ما. إنها طريقة شبه آمنة لأقيس قوة رغبتي ـ وربما أيضاً طريقة في تحدي القدر ـ أكثر من كونها وسيلة في معرفة إن كنت أقبل في دفع ثمن التخيل: «الأمر مشابه فيما لو عرفت أن منزلي احترق إن كنت نجحت في النهاية في إنهاء ما أكتبه».

خوفي من أن لا يأتي، من أن تكون رغبته أقل. في المساء، أحمل هذه الورقة من جديد، «لقد جاء»، لأدوّن بفوضى تفاصيل هذا اللقاء. من ثم، أنظر، بدهشة، إلى الورقة المجعلكة، المتضمنة لتلك الفقرتين المكتوبتين ما قبل وما بعد، اللتين تقرآن بالتوالي، من دون انقطاع. بين هاتين الفقرتين، قيلت كلمات، أفعال، أحالت كلّ ما تبقى إلى أمر تافه بما فيها الكتابة التي حاولت من خلالها أن أثبتها. ثمة مساحة غير محدودة ما بين ضجتيّ سيارة، سيارته الرونو ٢٥ وهي تفرمل، وحين تعاود الانطلاق، إذ كانت تجعلني على يقين بأن لا شيء أهمّ، حدث في حياتي، لا أن أنجب أطفالاً ولا أن أنجح في مسابقة ولا السفر إلى بلاد بعيدة من أن أكون مع هذا الرجل في السرير عينه، في منتصف ما بعد الظهيرة.

لم يدم ذلك سوى ساعات قليلة. لم أكن أحمل ساعتي، إذ أنزعها من معصمي قبل وصوله بالضبط، بينما هو، يحتفظ بها، وأخشى اللحظة التي ينظر بها إليها بخفاء. حين أذهب إلى المطبخ لإحضار مكعبات الثلج، أرفع ناظري إلى بندول الساعة المعلقة فوق الباب، «بعد ساعتين»، «ساعة»، أو «بعد ساعة سأكون هنا بعد أن يرحل». أسأل نفسي بدهشة: «أين هو الحاضر»؟

قبل ذهابه، يعود ليرتدي ثيابه بتمهل. أنظر إليه وهو يزرّر قميصه، وهو يرتدي جواربه، سرواله الداخلي، بنطاله، وليستدير صوب المرآة كي يعقد ربطة عنقه. حين يضع سترته، يكون كلّ شيء قد انتهى. لم أكن سوى وقت قضاه من خلالي.

بعد رحيله، سرعان ما يسمّرني تعب كبير. لا أقوم بعملية الترتيب حالا. كنت أتأمل الأقداح، الصحون وما تبقى فيها من فضلات طعام، المنفضة المليئة، الثياب، قطع الملابس الداخلية، المتناثرة في ممرّ المنزل، الغرفة، والشراشف المتدلية فوق الموكيت. أشعر برغبة في ترك كلّ شيء على حاله في هذه الفوضى إذ كلّ شيء يشير، كلّ غرض من هذه الأغراض، إلى حركة، إلى لحظة، ليشكل لوحة لا يمكن لأي لوحة أخرى، في معرض، أن تصل إلى قوتها وألمها، بالنسبة إليّ. ومن البديهي، أني لم أكن أستحم، قبل اليوم التالي، وذلك كي أحتفظ بسائله المنوي.

كنت أحصي كم مرة مارسنا الحب. وأشعر بأنه، في كلّ مرة، يُضاف شيء ما إلى علاقتنا، ولكن أيضاً كنت أشعر أن هذا التراكم في الحركات والمتعة هو من سيبعدنا حتماً عن

بعضنا البعض. كنّا نستهلك رأسمال الرغبة. وما كنّا نفوز به في نظام الكثافة الجسدية، كنّا نفقده في نظام الوقت.

كنت أسقط في نصف إغفاءة لأشعر بأنني أنام في جسده هو. غداة اليوم التالي، أحيا في غيبوبة حيث تعود لتتشكل لمسة حصل عليها، بطريقة غير محددة، حيث تتردد كلمة كان قد قالها. لم يكن يعرف كلمات فرنسية بذيئة، أو ربما لا يرغب في استعمالها إذ لم تكن بالنسبة إليه، محملة بأي مانع اجتماعي، كلمات بريئة بقدر ما هي بريئة الكلمات الأخرى (وكما يمكن لها أن تكون عليه، بالنسبة إليّ، الكلمات الفاضحة الموجودة في لغته). في قطار الأنفاق، في السوبرماركت، كنت أسمع صوته هامساً «داعبي لي عضوي بفمك». ذات مرّة، وأنا في محطة الأوبرا، وبدون أن أنتبه، تركت العربة التي كان عليّ أخذها ـ تمرّ.

يتلاشى هذا التخدير باضطراد، لأعود وأنتظر اتصالاً، بمزيد من العذاب والكآبة، كلمّا ابتعد تاريخ لقائنا الأخير. الأمر عينه كنت أشعر به، فيما مضى، بعد الامتحانات، إذ كلّما ابتعدت عن فترة التقديم وكلّما تيقنت بأنني رسبت، كلّما تعاقبت الأيام بدون أي اتصال منه لأتيقن بأنه هجرني.

اللحظات السعيدة الوحيدة، خارج حضوره، كانت حين

أشتري فساتين جديدة، أقراط، جوارب، لأجربها في منزلي أمام المرآة، فالأمر المثالي، والمستحيل، يكمن في أن يرى، في كلّ مرة، أدوات تزيين جديدة. بالكاد كان يلاحظ، ولخمس دقائق، بلوزتي أو حذائي الجديد الذي سيترك مهملاً في مكان ما، لغاية أن يرحل. أعرف أيضاً عدم نفع الملابس أمام رغبة جديدة يشعر بها أمام امرأة أخرى. لكن أن أظهر بثياب سبق له أن رآها، فهذا ما يبدو بمثابة خطيئة، تخلّ عن مجهود صوب اكتمال كنت أبحث عنه في علاقتي معه. وبذات الإرادة لهذا الكمال، تصفحت، في محل كبير، كتاب «تقنيات الحب الجسدي»، الموضوع تحت عنوان «٧٠٠ ألف نسخة مباعة».

غالباً، ما شعرت بأنني أعيش هذا الشغف كما لو أني أكتب كتابا: الحاجة عينها للنجاح في كلّ مشهد، الهمّ عينه في جميع التفاصيل. حتى أنني أفكر بأن الأمر سيّان في أن أموت بعد أن أصل إلى آخر هذا الشغف ـ من دون إعطاء معنى دقيق لـ «أقصى» ـ كما أنه يمكنني الموت بعد أن أنهي ما أكتبه، بعد عدة أشهر.

كنت أحاول، أمام الناس الذين أعاشرهم، ألا أترك هوسي يظهر في كلماتي، بالرغم من أن ذلك يتطلب يقظة

من الصعب الحفاظ عليها بشكل مستمر. رأيت، عند مصفف الشعر، امرأة ثرثارة جداً، يجيبها الجميع بطريقة طبيعية لغاية اللحظة التي قالت فيها، بعد أن أمالت رأسها في الحوض، «إنهم يعالجونني من أجل الأعصاب». سرعان، وبشكل غير ملحوظ، بدأ العاملون يحافظون على مسافة فيما بينهم وبينها، كما لو أن هذا الاعتراف العارم كان الدليل على إزعاجها. شعرت بالخوف بدوري من أن أبدو غير طبيعية فيما لو قلت إني أعيش «قصة شغف». ومع ذلك، حين أجد نفسي وسط نساء أخريات، عند صندوق السوبرماركت، في المصرف، كنت أتساءل ما إن كان لديهن مثلي رجلاً يحتل تفكيرهن باستمرار، وإن لا، فكيف يمكنهن العيش بهذه الطريقة، أي ـ ووفق تجربتي السابقة ـ ليس لديهن شيء لينتظرنه سوى عطلات نهاية الأسبوع، والخروج إلى مطعم، حصة التمارين الرياضية أو نتائج الأولاد المدرسية: كلّ ما يبدو لي الآن مضنياً وعديم المعنى.

وحين كان يعترف البعض، أكانت امرأة أم رجلاً، بأنهم كانوا يعيشون، أو أنهم عاشوا «علاقة حب مجنون مع شخص» أو «علاقة قوية جداً مع أحدهم»، كنت أشعر بالرغبة في أن أسرّ بأمري أحياناً. لكن ما أن تختفي هذه

البهجة بالتواطؤ، أشعر بالرغبة من الانتقام من نفسي، لأنني استسلمت للحديث، حتى وإن كان قليلاً. كانت هذه المحادثات التي استمريت في الإجابة عليها بخصوص «الآخر» بـ «أنا أيضاً، حدث لي الأمر عينه، تصرفت بالطريقة ذاتها، إلخ»، كانت تبدو لي، دفعة واحدة، غريبة عن واقع شغفي، عديمة النفع. حتى أن شيئاً ما، كان يضيع في هذا التدفق الكلامي.

لم أفش لابنيّ الطالبين اللذين يقيمان عندي بشكل غير منتظم، إلا القليل، ما كان يكفل لي الممارسة السهلة لعلاقتي. والأمر كذلك، كان عليهما الاتصال لمعرفة إن كان باستطاعتهما المجيء إلى المنزل، وإن كانا موجودين، يتوجب عليهما الرحيل ما أن يعلن أ. عن قدومه. لم يكن هذا الترتيب يثير ـ على الأقل بشكله الخارجي ـ أي صعوبة. بيد أنني كنت فضلّت أن أبقي هذه القصة، سريّة بالكامل، تجاه ولديّ، مثلما أخفيت بالماضي، وبالطريقة عينها، قصص غرامياتي ومغامراتي عن والديّ. هي الرغبة، من دون شك، في أن أتجنب حكمهما عليّ. إذ أن الأهل والأطفال هم آخر من يمكنهم قبول، وبدون حرج، جنسانية أولئك المقربين منهم جسدياً والمحرمين عليهم أبداً. أن يرفض الأولاد

البداهة المكتوبة في عينيّ أمهاتهم الغامضة، صمتها الغائب، فالأمر لا يتعدى كونه، في لحظات معينة، بمثابة قطة ملتاعة لا تتوقف عن مغازلة القطط العجائز[1].

خلال تلك الفترة، لم أستمع سوى مرة واحدة، للموسيقى الكلاسيكية، كنت أفضل الأغاني. الأكثر عاطفية منها، تلك التي لم أكن أعرها أي اهتمام فيما مضى، صارت تؤثر بي. إنها تنشد بدون لف ولا دوران، عمومية ذاك الشغف كما كونيته. حين أستمع إلى سيلفي فارتان[*] وهي تغني «هذا محتوم، يا حيوان»، أتيقن بأنني لم أكن الوحيدة التي تشعر بأمر مماثل. كانت الأغاني ترافق بشرعية ما كنت أحياه في تلك اللحظة.

في المجلات النسائية كنت أقرأ الأبراج في البداية.

تتملكني الرغبة في مشاهدة فيلم ما كنت مقتنعة أنه يتضمن قصتي، وكنت أشعر بالخيبة، إن كان فيلماً قديماً

---

(١) في مقابلات أجرتها مجلة «ماري ـ كلير» مع بعض الشباب، يقوم عدد منهم، وبدون جدوى، بمحاكمة غراميات أمهاتهم، المنفصلات منهن أو المطلقات. تقول إحدى الفتيات بضغينة: «لم ينفع عشاق والدتي بشيء سوى بجعلها تحلم. يا لهذه الخدمة».

(*) مغنية فرنسية من أصل بلغاري، إحدى نجمات «الهيت ـ باراد» في الثمانينات.

جداً، ولا يعرض في أي مكان، كما فيلم «امبراطورية الحواس» لأوشيما(*).

كنت أعطي مالاً للرجال والنساء الجالسين في ممرات قطار الأنفاق، متمنية أن يتصل بي هاتفياً في المساء. وأعد بأن أرسل مئتي فرنك إلى النجدة الشعبية إن جاء لزيارتي قبل موعد أحدده. وبخلاف طريقتي المعتادة في العيش، كنت أرمي المال بسهولة من النافذة. يتراءى لي ذلك أنه يشكل جزءاً من المصروف العام، الضروري، الذي لا يفترق عن شغفي بـ أ.، بما في ذلك استهلاك الوقت الذي كنت أضيَعه على أحلام اليقظة والانتظار وبالطبع استهلاك الجسد:

ممارسة الحب لدرجة الترنح من التعب، كما لو أنها المرّة الأخيرة. (ما هو الضامن على أنها ليست المرة الأخيرة؟)

ذات بعد ظهيرة، وكان هنا، أحرقت سجادة غرفة الجلوس، احترقت حتى الحبكة إذ وضعت عليها ركوة قهوة تغلي. كان أمراً لا معنى له، بالنسبة إليّ.

---

(*) من أشهر أفلام تلك الحقبة، وحاز العديد من الجوائز السينمائية المهمة، منها «السعفة الذهبية» في مهرجان كان السينمائي.

حتى، أنني في كلّ مرة كنت أرى فيها آثار الحرق، أشعر بالسعادة حين أتذكر أنني كنت معه يومها.

لم تكن تثيرني إزعاجات الحياة اليومية. لم ينشغل بالي بإضراب توزيع البريد الذي استمر لشهرين، لأن أ. لم يكن يرسل لي الرسائل (من دون شك بسبب حذره كرجل متزوج). كنت أنتظر بهدوء وأنا عالقة في العجقة، عند شبّاك مصرف، ولم أكن أنزعج من استقبال العامل العابس. لا شيء يعيل صبري. كنت أشعر تجاه الناس بمزيج من التعاطف والألم والأخوة. كنت أفهم الهامشيين الممددين على المقاعد، زبائن العاهرات، مسافرة غارقة في قراءة أحد كتب «هارلوكان»[1] (بيد انني لا أجيد قول ما الذي كان في داخلي يشبههم).

ذات مرة، وأنا ذاهبة، عارية، لجلب بعض زجاجات البيرة من البراد، تذكرت تلك النساء، الوحيدات أو المتزوجات، ربّات عائلات، اللواتي كنّ، في الحيّ الذي أمضيت فيه طفولتي، يستقبلن بالسرّ، رجلاً، خلال فترة بعد الظهيرة (إذ كان يُسمع كلّ شيء ـ كان من المستحيل عدم

---

(١) سلسلة شهيرة من الروايات العاطفية للمراهقين.

التدخل في شؤون الآخرين حين يأخذ عليك الجيران مأخذ أن ليس لك أي سلوك أو أنك تخصص ساعات النهار للمتعة بدلاً من تنظيف زجاج النوافذ). كنت أفكر فيهن برضا عميق.

كل هذا الوقت، شعرت بأني أعيش شغفي وفق الطريقة الرومنسية، لكني لا أعرف، الآن، وفق أي طريقة أكتب، هل هي شهادة، أو بالأحرى اعتراف مثلما هو عليه الأمر في اليوميات النسائية، هل هو بيان أم تحقيق، أو حتى تحليل نص.

لا أكتب سرد علاقة، لا أروي قصة (يهرب نصفها مني) بتراتبية محددة، «أتى يوم ١١ تشرين الثاني»، أو تقريباً كذلك، «تمضي أسابيع». لم تكن لي قصة في هذه العلاقة، لم أكن أعرف إلا الحضور أو الغياب. أراكم فقط إشارات الشغف، متأرجحة بدون توقف، ما بين «دائماً» و«ذات يوم»، كما لو أن هذه الجَردة ستتيح لي بأن أصل إلى واقع هذا الشغف. بطبيعة الحال، لا يوجد هنا، في تعداد هذه الوقائع وتوصيفها، لا سخرية ولا استهزاء، يشكلان أساليب فِي رواية الأشياء للآخرين أو إلى ذواتنا بعد أن نكون قد عشناها، وليس في برهنتها في لحظة حدوثها.

أما فيما يخص سبب شغفي، فلا نيّة لدي في البحث عنه

عبر قصتي البعيدة، تلك التي جعلتني أستشير محللاً نفسياً، أو حتى القريبة، ولا في مُثل العاطفة الثقافية التي وسمتني منذ طفولتي («ذهب مع الريح»، «فيدرا»)، أو حتى أغاني إديث بياف التي كانت قاطعة مثل عقدة أوديب). لا أريد شرح شغفي ـ وإلا سيتحول الأمر إلى اعتباره غلطة أو اختلال علينا تبريره ـ بل أريد أن أعرضه فقط.

المعطيات الوحيدة، ربما، التي علينا الانتباه لها، ستكون مادية، الزمن والحرية اللذين استطعت الحصول عليهما لأعيش بهذه الطريقة.

كان يحب أطقم سان ـ لوران، ربطات عنق تشيروتي، والسيارات الكبيرة. يقود بسرعة، وهو يطلق الأنوار، بدون أن يتكلم، كما لو أنه مستسلم بشكل كامل لإحساسه بأنه حرّ، وأنيق، وفي وضع مسيطر عليه فوق طرقات فرنسا السريعة، وهو الآتي من إحدى بلدان (أوروبا) الشرقية. كان يثمن فكرة أن ثمة شبها بينه وبين ألان دولون(*). كنت أتكهن ـ بقدر ما يمكننا القيام بذلك بصوابية حين يتعلق الأمر بشخص غريب ـ بأنه لم يكن مشدوداً إلى الأشياء الثقافية

(*) ممثل فرنسي شهير، كان يُعدّ «فتى الشاشة» من دون منازع.

والفنيّة، على الرغم من الاحترام التي تفرضها عليه. كان يفضل، على شاشة التلفاز، الألعاب و«سانتا بارباره»[*].

سيّان ذلك كله عندي. بدون شك لأنني كنت أستطيع اعتبار ميول أ.، الغريبة، بمثابة اختلافات ثقافية قبل أي اعتبار آخر، بينما هذه الميول، عند شخص فرنسي، كانت لتظهر على أنها فروقات اجتماعية. أو، ربما، أجد المتعة في أن أجدّ في أ. الجزء الأكثر ملائمة من نفسي: كنت مراهقة تواقة إلى الفساتين والأسطوانات والرحلات، إلا أنني كنت محرومة من ذلك وسط رفاق يحظون بها ـ وعلى صورة أ. «المحروم» منها مع شعبه بأسره، لم يكن يتطلع إلا إلى امتلاك قمصان جميلة وأجهزة الفيديو في واجهات المحلات الغربية[١].

كان يشرب كثيراً، وفق عادات بلاد (أوروبا) الشرقية.

---

(*) من أشهر برامج الألعاب التلفزيونية الفرنسية في ثمانينات القرن الماضي.

(١) يستمر هذا الرجل بالعيش في العالم. لا يمكنني أن أصفه أكثر، مخافة أن أقدم عنه إشارات يمكن لها أن تكشف هويته. لقد «صنع حياته» بحزم، أي ليس هناك، بالنسبة إليه، أي أمر أهم من ترتيب هذه الحياة. فأن يكون مختلفاً عني، لا يجيز لي أن أكشف عن شخصيته. لم يختر أن يظهر في كتابي بل فقط في وجودي.

يرعبني ذلك الأمر بسبب إمكانية حصول حادث سير بعد أن يعود على الطريق السريع، إلا أن ذلك لم يكن ينفرني. حتى لو حدث له أن ترنح، أو أن تجشأ وهو يقبلني. على العكس من ذلك، كنت سعيدة بكوني متحدة به في بداية هذه الحقارة.

لم أكن أعرف ما كانت عليه طبيعة علاقته معي. في البداية، استنبطت بعض المؤشرات ـ شكله السعيد وصمته وهو ينظر إليّ، قوله إنه قاد مثل مجنون كي يأتي، راوياً لي طفولته ـ إحساسه بالشغف عينه مثلي. بيد أن هذا اليقين تأرجح لاحقاً. بدا لي أكثر تحفظاً، أقل ميلاً لأن يعترف ـ إلا أنه كان يكفي أن يحدثني عن أبيه، عن التوت الذي كان يقطفه وهو في الثانية عشرة من عمره حتى أغيّر رأيي. لم يعد يهديني أي شيء ـ وحين أتلقى وروداً من قبل أصدقاء، كنت أفكر بالاهتمام الذي يعتبره ليس ضرورياً تجاهي، بل بالأحرى: «يقدم لي رغبته كهدية». كنت أسجل بنهم الجُمل التي كنت أعتبرها شارات عن غيرته، وهي البرهان الوحيد، برأيي، عن حبه. بعد فترة، لاحظت بأن «هل ستسافرين خلال عيد الميلاد»؟ لم يكن سوى سؤال تافه أو عملي، كي يخطط لموعد أم لا، وليس أبداً طريقة ملتوية لمعرفة إن

كنت سأذهب للتزلج مع أحدهم (ربما كان فعلا يتمنى أن اذهب كي يستطيع أخيراً أن يكون مع امرأة أخرى؟). غالباً ما تساءلت ما الذي تعني له فترات بعد الظهر هذه التي يقضيها بممارسة الحب. بدون شك، لا شيء سوى هذا بالضبط: ممارسة الحب. في أي حال، من غير المفيد البحث عن حجج إضافية، إذ لن أكون متأكدة مطلقاً سوى من أمر واحد: رغبته أو انتفاء رغبته. الحقيقة الوحيدة المؤكدة كان واضحة وأنا أنظر إلى عضوه الذكري.

كونه غريباً، يحيل كلّ تأويل لتصرفاته أمراً غير مؤكد زيادة، لقد عُجن بثقافة لا أعرف عنها إلا مظهرها السياحي، صورتها المبتذلة (كليشيهاتها). شعرت بالإحباط في البداية بهذه الحدود البديهية للتفاهم المشترك، الذي غذّاه كوني ـ وعلى الرغم من أنه كان يعبر جيداً بالفرنسية ـ إلا أنني لم أكن أتكلم لغته. من ثم قبلت بأن هذا الوضع يبعد عني وهم الاعتقاد بتفاهم متكامل، وحتى الانصهار، بيننا. ففي هذا الفارق الخفيف للغته الفرنسية عن استعمال اللغة المعتادة، في هذا التردد الذي كنت أشعر به أحياناً حول المعنى الذي يعطيه لكلمة ما، كنت اقيس في كلّ لحظة تقريبية تبادل العبارات. كنت أملك امتياز أن أعيش منذ البداية، وبشكل

ثابت، وبوعي كليّ، ما ينتهي بنا الأمر لاكتشافه في الدهشة والاضطراب: الرجل الذي نحبه شخص غريب.

القيود التي كان يفرضها عليّ وضعه كرجل متزوج ـ ألا أتصل به هاتفيا، أن لا أرسل له الرسائل، ألا أقدم له هدايا يكون من الصعب تبريرها، الخضوع دوماً لإمكانيته في أن يكون حرّاً ـ لم تكن تجعلني أثور.

كنت أسلمه الرسائل التي كتبتها له في اللحظة التي كان يغادر فيها منزلي وشكي، أنه ما أن يقرأها، حتى كان يرميها نتفاً صغيرة على الطريق السريع، لم يكن يمنعني من الاستمرار في الكتابة له.

كنت أحتاط بأن لا أترك أي أثر مني على ثيابه مثلما لم أكن أترك أي أثر على جسده. فبقدر رغبتي في أن أجعله يتجنب أي مشكلة مع زوجته، ثمة رغبة أخرى في أن لا يشعر بأي ضغينة تقوده إلى أن يهجرني. ولهذا السبب بالذات، تجنبت في أن ألتقي به في الأماكن التي يصحبها إليها. كنت أخشى أن أخون أمامها عبر حركة فجائية ـ تمسيد رقبة أ.، ترتيب تفصيل ما في بذّته ـ، هذه العلاقة بيننا. (لم أكن أرغب أيضاً في أن اتألم بشكل عديم الفائدة، في أن أقدم نفسي، كما في كلّ مرة أراها فيها، لم يكن أ. وهو

يمارس الحب معها ـ وهو أمر أعتبره بدون معنى، وأنه يقوم به لأنها «تحت يده» ـ يستطيع شيئاً قبالة عذاب مشهد مماثل).

هذه القيود، بذاتها، كانت مصدر الانتظار والرغبة. وبما أنه كان يتصل بي دائماً من أكشاك الهاتف، ذات التشغيل غير المتوقع، كنت حين أرفع السماعة لا أجد في الأغلب أحداً عند طرف الخط. على مرّ الزمن، تعلمت بأن هذا الاتصال «المزيف» يسبق آخر حقيقياً، بعد ربع ساعة على الأكثر، أي الوقت الذي يحتاجه كي يجد آلة أخرى تعمل. هذا الاتصال الأول الصامت كان الإشارة التي تسبق صوته، وعد (نادر) عن سعادة ما، والمسافة التي تفصلني عن الاتصال اللاحق الذي يقول فيه عن اسمه وبأنه يمكننا «أن نلتقي»؟، وذلك ما يشكل واحدة من أجمل اللحظات قاطبة.

وأنا أمام شاشة التلفاز، عند المساء، أتساءل إن كان يشاهد البرنامج عينه أم الفيلم الذي كنت أشاهده، وبخاصة إن كان الموضوع حول الحب أو الايروسية، وعمّا إن كان السيناريو على علاقة مع وضعنا. أتخيل حينذاك أنه كان يِشاهد «المرأة المجاورة»(*) جاعلاً منّا نحن الاثنين بديلاً من

---

(*) من أشهر أفلام المخرج الفرنسي الراحل فرانسوا تروفو.

شخصيتيّ الفيلم. وإن قال لي إنه شاهد الفيلم فعلاً، كنت أميل إلى الاعتقاد بأنه اختاره في هذا المساء بالذات بسببنا وبأن قصتنا، بعد أن تمّ عرضها على الشاشة، تبدو له أجمل، وهي مبررة في جميع الأحوال. (بالطبع، كنت أُبعد بسرعة فكرة أن ارتباطنا يمكن أن تبدو له، وبطريقة عكسية، علاقة خطرة، لأن كلّ علاقات الشغف خارج الزواج، في السينما، تنتهي نهاية سيئة، بشكل منتظم).

أحياناً، كنت أقول لنفسي أنه يمضي ربما نهاراً بأكلمه من دون أن يفكر بي ولو للحظة واحدة. كنت أراه ينهض من النوم، يتناول قهوته، يتحدث، يضحك، كما لو أنني غير موجودة. هذا الاختلاف وبكل ما يحمله من هوس، كان يملأني بالدهشة. كيف لذلك أن يكون صحيحاً. لكنه هو نفسه لكان أصيب بالدهشة لو علم بأنه لا يفارق تفكيري من الصباح حتى المساء. ما من منطق في إيجاد أي من الأمرين هو الأصوب، تصرفي أم تصرفه. بأي حال، كنت محظوظة أكثر منه.

حين كنت أتجول في باريس، وأنا أشاهد على الطرقات الكبيرة مرور سيارات فارهة لا يقودها سوى رجل بمفرده، شبيه برجل أعمال من ذوي المراكز العارية، كنت أتيقن بأن

أ. لم يكن سوى واحد منهم، لا أكثر ولا أقل، إذ أنه أولا قلق على مهنته، وعنده فائض من الايروسية، وربما شيء من الحب، لامرأة جديدة، تتبدل، كلّ عام أو عامين. حرّرني هذا الاكتشاف. قررت أن لا أراه مجدداً. كنت على يقين بأنه أصبح بالنسبة إليّ شخصاً عادياً وبدون أهمية مثله مثل أولئك الذين يقودون سيارات الـ BMW أو الرونو ٢٥ النظيفة. إلا أنه وخلال سيري، كنت أنظر إلى الأثواب كما إلى الثياب الداخلية في واجهات المحلات، كما لو أنني أستشرف لقاءً مقبلاً بيننا.

هذه اللحظات المتباعدة، السرابية، كان تأتي من الخارج، ولم أكن أبحث عنها. بل على العكس، كنت أتجنب المناسبات التي يمكن لنها أن تنزعني من هاجسي هذا: القراءة، السهر، كلّ نشاط كنت أميل إليه قبلاً. كنت أتطلع إلى التفرغ الكامل. رفضت بعنف مهمة إضافية في العمل طلبها مني مديري، لدرجة أنني شتمته على الهاتف. تراءى لي أنني كنت على حق في وقوفي ضدّ كلّ ما كان يمنعني في الاستسلام، وبدون حدود، إلى هذه الأحاسيس، وإلى هذه الأقاصيص الخيالية العائدة لشغفي.

في القطارات، في المترو، في صالات الانتظار، في كلّ الأماكن التي يسمح بها بعدم العمل، وما أن أجلس، كنت

أبدأ الحلم بـ أ. وفي اللحظة التي كنت أدخل فيها في هذه الحالة، أشعر داخل رأسي برعشة سعادة. أشعر بأن أترك نفسي لمتعة جسدية، كما لو أن المخ، وتحت تأثير الانهمار المتكرر للصور عينها، يمكن له أن يشعر باللذة، وبأن يكون عضواً جنسياً شبيهاً بالأعضاء الأخرى.

بطبيعة الحال لا أشعر بأي خجل في تدوين هذه الأشياء، بسبب المهلة التي تفصل بين اللحظة التي تُكتب فيها حيث أكون وحدي من يراها، وبين اللحظة التي ستُقرأ فيها من قبل الناس، والتي أعتقد، أنها لحظة لن تحدث أبداً. ولغاية ذلك الوقت، يمكن أن أتعرّض لحادث، أن أموت، يمكن أن تنشب حرب أو تندلع ثورة. بسبب هذه المهلة يمكنني أن أكتب حاليا، تقريباً مثلما كنت في السادسة عشرة من عمري أعرّض نفسي للشمس الحارقة طيلة نهار بأسره، وفي العشرين حين كنت أمارس الحب من دون وسائل منع الحمل: أي بدون تفكير بالعواقب التي تلي.

(من الخطأ إذاً أن نقارن بين الذي يكتب عن حياته وبين الذي يعرضها أمام الآخرين، لأن هذا الأخير لا يملك سوى رغبة واحدة، أن يُظهر نفسه وأن يُرى في اللحظة عينها).

في الربيع، أصبح انتظاري مستمراً. حلّت حرارة، سابقة

لأوانها، مع بداية شهر أيار. بانت الفساتين الصيفية في الشوارع، امتلأت شرفات المقاهي. وبدون توقف، كانت تُسمع رقصة اكزوتيكية، تهمس بها امرأة بصوت مخنوق، اللمبادا. كلّ شيء كان يعني إمكانيات جديدة للمتعة أوكل بها أ. مشروع أن يستفيد منها بعيداً عني. منصبه، أعماله في فرنسا، كانت تبدو لي رفيعة المستوى، جديرة بأن تجذب أعجاب كلّ النساء، كنت أقلّل من شأني بنسبة معكوسة، ولا أجد أي فائدة يمكن أن تبقيه بالقرب مني. حين أذهب إلى باريس، إلى أي حيّ من أحيائها، أتوقع باستمرار أن أراه يمرّ بسيارته وامرأة أخرى إلى جانبه. كنت أمشي بخط مستقيم، متخذة بشكل مسبق، وبعزّة نفس، مظهراً لا مبالياً بهذا اللقاء. وأن لا يحدث هذا اللقاء، بالطبع، كان يشعرني بخيبة أمل بشكل أكبر: كنت أتصبب عرقاً تحت نظرته المتخيلة في «بولفار الإيطاليين» في حين كان بعيداً عن هنا، ومن غير الممكن الإمساك به. كانت تلاحقني صورته المارقة وهو يسير بسيارته، ذات الشبابيك المنخفضة، وصوت الراديو-كاسيت عالياً، متجهاً إلى حديقة «سو» أو إلى غابات «فانسان».

ذات يوم، بدأت بقراءة ـ في مجلة أسبوعية تلفزيونية ـ تحقيقا عن فرقة راقصين أتوا من كوبا، ليقوموا بجولة في

باريس. كان كاتب التحقيق يشدّد على طبيعة الكوبيين الحسّيّة وحريتهم. ثمة صورة تظهر الراقصة التي أجري الحوار معها، تظهرها ضخمة، بشعرها الأسود، وساقاها الطويلتان متكشفتان. كلما تقدمت في القراءة، كان حدسي يزداد. عند النهاية، كنت مقتنعة بأن أ. الذي يعرف كوبا، كان التقى بالراقصة التي في الصورة. كنت أراه معها في غرفة فندق وما من شيء يمكن له أن يقنعني بأن هذا المشهد غير حقيقي. بل على العكس، كانت فرضية ألا يكون ذلك قد حدث يبدو لي أمراً أحمق ولا يمكن تخيله.

حين يتصل بي لكي نلتقي، وهو اتصال تمنيته مئة مرة برغم أنه لم يكن ليغير شيئاً، كنت أبقى في الحالة عينها من التوتر الأليم الذي كنت أعيشه قبلا. دخلت في حالة حيث أن حقيقة صوته حتى لا تنجح في جعلي سعيدة. كلّ شيء كان حاجة بدون نهاية، سوى اللحظة التي كنّا فيها سويّاً ونحن نتطارح الغرام. زِدْ على ذلك، كان ينتابني فزع من اللحظة التي ستلي، اللحظة التي يرحل فيها. كنت أحيا المتعة بمثابة ألم مستقبلي.

رغبة الانفصال لم تتوقف، لكي لا أكون تحت رحمة الاتصال، لكي لا أتألم أكثر، لكن سرعان ما كنت أستعرض ما يفترضه الانفصال في تلك اللحظة: تتابع أيام من دون

انتظار شيء. لهذا كنت أفضّل أن أستمر معه مهما بلغ الثمن ـ أن تكون لديه امرأة أخرى، عدة نساء (ما يعني معاناة أكبر من تلك المعاناة التي بسببها كنت أرغب في الرحيل عنه). وأمام هذا العدم المتوقع، تراءى لي وضعي الحالي مفرحاً، وغيرتي نوعا من الامتياز الهش حيث أنني حمقاء فيما لو رغبت في النهاية، بما أن هذه النهاية ستأتي حتما ذات يوم خارج إرادتي، حين يرحل أو يتركني بنفسه.

كنت أهرب من الفرص التي تتيح لي أن ألتقي به في الخارج، بين الناس، لم أكن أحتمل أن أراه لمجرد أن أراه فقط. لهذا لم أكن اذهب لحضور افتتاح كان مدعواً إليه، مهووسة أثناء ذلك، وطيلة السهرة، بهذه الصورة عنه، وهو يبتسم ومهتما بامرأة قربه، بالطريقة عينها التي اهتم بي فيها حين تعرفنا على بعضنا البعض. لاحقاً، قال لي أحدهم أنه في تلك السهرة، كان هناك ثلاثة أشخاص صلعاء ورابع حليق الرأس. شعرت بالراحة وأنا أردد هذه العبارة بمتعة، كما لو أن هناك علاقة ما بين جو الاستقبال وعدد النساء المدعوات وما بين ما لا يتعلق إلا بصدفة اللقاء ـ بينما تكفي امرأة واحدة ـ، أشاء بذلك أم لم يشأ ـ لكي يعاكسها.

كنت أبحث أن أكون على علم بتسلياته وبسهراته خلال

العطل الأسبوعية. كنت أفكر «بأنه في هذه اللحظة في غابة «فونتينبلو»، يمارس رياضة الجري ـ أو على طريق «دوفيل» ـ على الشاطئ بالقرب من زوجته»، إلخ. أن أعرف ذلك، أمر يدفع الطمأنينة إلى نفسي، كنت أشعر، فيما لو نجحت في وضعه بهذا المكان، وفي هذه اللحظة، بأن ذلك يجنبني الشك في عدم أخلاصه. (اعتقاد أقرّبه من الأمر التالي، بالرغم من الحاحه، الذي يتمثل في تخيل أكثر من معرفة مكان الحفل أو مكان عطلة أولادي، إذ يكفي ذلك لضمانهم من حادث سيارة، من المخدرات أو من الغرق).

لم أرغب في الذهاب بعطلة هذا الصيف، ولا أن استيقظ صباحاً في غرفة فندق كي أرى أمامي يوما كاملا لأعيشه بدون انتظار أي اتصال هاتفي منه. امتناعي عن الذهاب، كان بمثابة أن أعترف له وبوضوح بشغفي بدلاً من أن أقول له «أنا هائمة بك». ذات يوم كنت فيه فريسة هذه الرغبة في الانفصال، قررت، بدلاً من ذلك، أن أحجز مكانا في القطار وفي فندق، بعد شهرين، في مدينة فلورنسا. كنت مرتاحة لهذا الشكل من الانفصال الذي لم أكن مضطرة فيه لأن أهجره. رأيت اقتراب لحظة السفر وكأنها تشبه لحظة امتحان سجلت فيه اسمي مسبقاً بفترة طويلة إلا أني لم أستعد له ـ

لشدّة انشغالي ولشعوري بعدم جدواه. في عربة النوم في القطار، لم أتوقف عن تخيل نفسي عائدة باتجاه باريس بعد ثمانية أيام: احتمال سعادة فائقة، شبه مستحيلة، (ربما متّ في فلورنسا، ولن أراه مجدداً)، وهذا ما فاقم رعبي من الابتعاد أكثر فأكثر عن باريس، وما جعلني أشعر بالمسافة ما بين الذهاب والعودة وكأنها فترة بدون نهاية ومتوحشة.

الأسوأ من ذلك، عدم قدرتي على البقاء في غرفة الفندق، طيلة النهار، وأنا أنتظر القطار الذي سيعيدني إلى باريس. كان عليّ تبرير السفر بقيامي بجولات ثقافية وبنزهات كنت معتادة عليها خلال الأجازة. سرت لساعات في «الأولترانو»، في حديقة «بوبولي»، وصولا إلى ساحة «سان ميكيلانجلو» و«سان مينياتو». دخلت إلى جميع الكنائس المفتوحة، ناذرة ثلاث أمنيات (بسبب الإيمان أن واحدة منها ستتحقق ـ وللثلاثة علاقة بـ أ. بطبيعة الحال)، فأبقى جالسة في النداوة والصمت ـ لأتابع واحداً من السيناريوهات المتعددة، التي تتوالى على ذهني، في كلّ مكان، من الصباح إلى المساء (إقامة مشتركة في فلورنسا، أن نلتقي مجدداً بعد عشر سنوات في مطار ما، إلخ).

لم أكن أفهم كيف أن بعض الناس يبحثون في الدليل

السياحي عن تاريخ وشرح كلّ لوحة، عن كلّ شيء لا علاقة له بحياتهم الخاصة. الاهتمام الوحيد الذي كنت أوليه للأعمال الفنيّة كان اهتمام شغف فقط. عدت إلى كنيسة «لا باديا» لأن دانتي التقى بياتريس هنا. أما جداريات «سانتا كروس» نصف الممحوة فكانت تشوشني بسبب قصتي التي قد تصبح يوما شبيهة بها، مجرد بقايا منزوعة اللون في ذاكرته وذاكرتي.

في المتاحف، لم أكن أرى إلا تمثلات الحب. كنت أنجذب إلى تماثيل الرجال العراة. ففيها أجد شكل كتفي أ.، بطنه، عضوه، وبخاصة الثنية الخفيفة التي تلي الانحناءة الداخلية لردفيه وصولاً إلى قعر الحالب. لم أنجح في الابتعاد عن (تمثال) «دافيد» لمايكل أنجلو، مندهشة إلى حدّ الألم بأنه كان رجلاً وليس امرأة، من عبر بروعة عن جمال الجسد الذكري. حتى وإن كان يمكن شرح ذلك عبر شرط النساء المقموع، إلا أنه بدا لي أن ثمة شيئاً ناقصاً وإلى الأبد[1].

---

(١) بالقدر عينه، أشعر بالندم بأن ليس هناك أي لوحة، رسمتها امرأة، تثير العديد من العواطف التي لا توصف، مثل لوحة «كوربيه» التي تظهر عضو المرأة في مقدمة اللوحة، وهي امرأة نائمة لا يظهر وجهها وتحمل عنوان «أصل العالم».

في القطار، خلال العودة، شعرت بأني دونت كلّ شيء، عن شغفي في فلورنسا، خلال تجوالي في الشوارع، وأنا أزور المتاحف، مهووسة بـ أ.، لأرى معه كلّ شيء، لأكل وأنام معه في هذا الفندق الصاخب على ضفاف «الأرنو». يكفي أن أعود وأقرأ قصة المرأة هذه التي تعشق رجلاً، والتي هي قصتي. هذه الأيام الثمانية (التي قضيتها) من دون كلام، سوى في الحديث إلى ندلاء المطعم، والتي كنت فيها مهووسة بصورة أ. (لدرجة أنني شعرت بالدهشة من المغازلين الذين اقتربوا مني بأنهم لم يروا صورته تشف داخل جسدي)؟ هذه الأيام، تراءت لي في النهاية كبرهان لا يزال يكمل الحب. هي نوع من الإسراف الإضافي، في الخيال هذه المرة كما في الرغبة في الغياب.

غادر فرنسا عائداً إلى بلاده منذ ستة أشهر. بدون شك لن التقيه مجدداً. في البداية، حين كنت أستيقظ في العاشرة صباحاً، كان الأمر سيّان عندي في أن أعيش أو أن أموت. جسدي كلّه يسبب لي الألم. رغبت في نزع الألم إلا أنه كان في كلّ مكان. تمنيت لو أن لصاً يدخل إلى غرفتي ويقتلني. خلال النهار، كنت أحاول أن أشغل نفسي بشكل دائم، بأن لا أبقي جالسة من دون القيام بأي عمل، مخافة أن أضيع

(غائم معنى هذه الكلمة، إذ أقصد الاستغراق في اليأس، أن أبدأ بشرب الكحول، إلخ). ومن أجل السبب عينه، كنت أجبر نفسي على ارتداء ملابسي وعلى أن أتبرج كما ينبغي، وأن أضع العدسات اللاصقة بدلاً من النظارات، وبخلاف الشجاعة التي تفرضها عليّ هذه المراوغة. لم أكن أقوى على مشاهدة التلفاز ولا أن أتصفح المجلات، وكل إعلانات العطور أو أفران «المايكرو ويف»، لا تشير إلا لهذا الأمر: امرأة تنتظر رجلاً. وكنت أدير رأسي وأنا أمر أمام حوانيت الملابس الداخلية.

حين أشعر بالسوء فعلاً، تستبد بي الرغبة إلى استشارة قارئة أوراق، إذ يبدو لي إنه الشيء الوحيد الحيوي الذي يمكنني القيام به. ذات يوم، بحثت عن أسماء عرافات على «المينيتيل». كانت اللائحة طويلة. تشير إحداهن إلى انها تنبأت بزلزال سان فرانسيسكو وبموت داليدا. وطيلة الوقت الذي كنت أسجل فيه أسماءهن وأرقام هواتفهن، كانت تنتابني النشوة عينها التي شعرت بها، قبل شهر، وأنا أقيس فستاناً جديداً من أجل أ.، كما لو اني ما زلت أقوم بأمر ما من أجله. لاحقاً، لم أتصل بأي عرافة مخافة أن تتكهن لي بأنه لن يعود أبداً. قلت لنفسي، وبدون اندهاش «أنا أيضاً

توصلت للأمر عينه»، لم يكن هناك ما يجعلني لا أصل إلى النتيجة عينها.

ذات ليلة، استبدت بي رغبة في القيام بإجراء تحليل الايدز. على الأقل يمكن أنه ترك لي ذلك على الأقل.

أرغب بشدة في تذكر جسده، من شعره حتى الفودين. نجحت في رؤية، وبدقة، عينيه الخضراوين، حركة خصلة شعره فوق جبينه، انحناءة كتفيه. شعرت بأسنانه داخل فمه، شكل فخذيه، حبيبات جسده. فكرت أن الفارق قليل ما بين إعادة تركيب المشهد هذا وبين الهلوسة، بين الذاكرة والجنون.

ذات مرة، وأنا مستلقية على بطني، استمتعت بنفسي، تراءى لي أنها متعته الخاصة به.

خلال أسابيع:

استيقظت في عزّ الليل، لأبقى ساهرة حتى الصباح في حالة من الصعب تحديدها، متيقظة وبدون قدرة على التفكير. كنت أرغب في الهروب في النعاس إلا أنه يقيم باستمرار فوَقي.

لم أكن أرغب في النهوض من سريري. كنت أرى النهار

أمامي، بدون أي مشروع. الإحساس بأن الزمن لم يعد يقودني إلى أي شيء، بل يجعلني أشيخ فقط.

في السوبرماركت، كنت أفكر «بأني لم أعد بحاجة إلى شراء هذا الشيء» (الويسكي، اللوز، إلخ).

أنظر إلى القمصان والأحذية التي اشتريتها من أجل رجل، والتي عادت ملابس بدون معنى، فقط كي تكون على الموضة. هل من الممكن أن نرغب في هذه الأشياء، لا يهم أي شيء، إلا بسبب شخص ما، كي نخدم الحب؟ يلزمني «شال» بسبب البرد القارس: «لن يراه أبداً».

لم أعد أحتمل أي شخص. الناس الذين كنت أنجح في التردد إليهم كانوا أولئك الذين تعرفت إليهم فترة علاقتي بـ أ. إنهم موجودون في قصة شغفي. حتى وإن كانوا لا يثيرون عندي أي اهتمام أو تقدير، بل كنت أشعر بعاطفة تجاههم. إلا أنني لا أقوى على مشاهدة مقدم برامج من على شاشة التلفاز، أو أي ممثل، كنت أحب أن أجد فيه، من قبل، شكل أ. وحركاته وعينيه. هذه الإشارات العائدة إليه والموجود في شخص آخر والتي لا أهتم بها، أصبحت بمثابة خدعة. أكره هذه النماذج لأنها تستمر في التشبه بـ أ.

نذرت، فيما لو اتصل بي قبل نهاية الشهر، بأن أتبرع بمبلغ خمسمائة فرنك لإحدى الجمعيات الإنسانية.

تخيّلت أننا سنتقابل في أحد الفنادق، في إحدى المطارات، أو أنه سيرسل لي رسالة. وأني أجيب على عبارات لم يقلها، على كلمات لن يكتبها أبداً إن ذهبت إلى مكان كنت زرته قبل عام حين كان هنا ـ عند طبيب الأسنان أو اجتماع أساتذة ـ كنت أرتدي «التايور» عينه الذي كنت ارتديته من قبل، محاولة أن اقنع نفسي أن الظروف عينها ستنتج النتائج ذاتها، وبأنه سيتصل بي هاتفياً عند المساء. وعندما أذهب للنوم صوب منتصف الليل، مهزومة، أتيقن بأنني فعلاً صدقت، طيلة اليوم، بأنه سيتصل بي.

خلال فترات أرقي، كنت أستعيد أحياناً مدينة «فينيتسيا» (البندقية) حيث أمضيت أسبوع إجازة، بالضبط قبل أن التقي أ. حاولت أن أتذكر جدول أعمالي وبرامجي، أتذكر نفسي في «الزاتير»، في شوارع «غيديتشا». أعيد تشكيل غرفتي في ملحق فندق «لا كالتشينا»، جاهدة في تذكر كلّ شيء، السرير الضيق، النافذة العالية التي تطل على الباحة الخلفية لمقهى «كوتشيليو»، الطاولة المغطاة بشرشف أبيض والتي وضعت عليها كتبا، يمكنني تعداد عناوينها. كنت أحسب عدد

الأشياء الموجودة هنا، الواحدة تلو الأخرى، منهمكة في سبر محتوى مكان اقمت فيه قبل أن تبدأ قصتي مع أ.، كما لو أن جردة متكاملة ستتيح لي أن أعود لأحيا ذلك. وبسبب الإيمان ذاته، عادت دوافعي للتحرك بدفعي إلى الذهاب إلى «فينيتسيا»، إلى الفندق عينه والغرفة نفسها.

خلال هذه الفترة، كلّ أفكاري، كلّ أعمالي كانت بمثابة استعادة ما حدث من قبل. رغبت في حث الحاضر ليعود ويصبح ماضياً مفتوحاً على السعادة.

كنت أحسب (الوقت) دائماً «مرّ أسبوع، مرّت خمسة أسابيع منذ رحيله»، و«السنة الماضية، في هذا التاريخ، كنت هنا وأفعل كذا». ومهما حدث من أمر، «افتتاح مركز تجاري، زيارة غورباتشوف إلى باريس، انتصار تشانغ في دورة رولان غاروس، كنت أجد للحال: «كان ذلك حين كان هنا». كنت أستعيد رؤية لحظات من تلك الحقبة، ليس لها أي خاصية تحديداً ـ أكنت في قاعة الملفات في جامعة السوربون، أو كنت أسير على بولفار فولتير، أو كنت اقيس تنورة في محل بينيتون ـ فمع هذا الشعور بأني لا زلت مكاني أتساءل لِمَ من المستحيل بعد أن «أمضي» هذه اللحظة بالذات، بالطريقة عينها التي نمضي فيها من غرفة إلى أخرى.

في أحلامي، كانت هناك أيضاً هذه الرغبة في زمن مقلوب. كنت أتحدث وأتشاجر مع والدتي (المتوفاة)، وقد عادت إلى قيد الحياة، بيد انني كنت أعرف في حلمي - وهي أيضاً - بأنها ماتت. لم يكن لذلك أي سمة خاصة، فقد كان موتها وراءها، مثل «شيء جيد في الواقع»، هذا كلّ شيء. (يبدو لي أن هذا الحلم عاودني أغلب الأحيان). في مرة أخرى، كانت هناك فتاة صغيرة بلباس سباحة اختفت خلال رحلة قصيرة. أعيد تمثيل الجريمة بسرعة. بعثت الفتاة كي تقوم بنفسها تمثيل المسار الذي قادها إلى موتها. لكن بالنسبة إلى القاضي، كانت إعادة تمثيل الجريمة، تعقد الحقيقة. في الأحلام الأخرى، كنت أفقد حقيبة اليد، طريقي، ولا أنجح في توضيب حقيبتي من أجل اللحاق بقطار وشيك. كنت أرى أ. مجدداً وسط الناس، ولم يكن ينظر إليّ. كنا معاً في سيارة تاكسي، كنت أداعبه، وقد بقي عضوه ساكناً. فيما بعد، ظهر لي من جديد بكامل رغبته. كما موجودين في دورة مياه أحد المقاهي، في شارع على طول جدار، ليلجني بدون أي كلمة.

في عطلة نهاية الأسبوع، كنت أجبر نفسي على القيام بنشاط جسماني محموم، تنظيف المنزل، أعمال الحديقة. في

المساء، كنت أشعر بالإرهاق وأطرافي مخدرة، كما حين كان أ. يقضي فترات بعد الظهر في منزلي. إلا أن الأمر هنا بمثابة تعب فارغ، بدون ذكرى الجسد الآخر وما يدفع الرعب إلى قلبي.

بدأت بالرواية التالي: «بدءاً من شهر أيلول لم يعد لدي ما أفعله، سوى انتظار رجل»، إلخ، كان ذلك بعد شهرين تقريباً من رحيل أ.، ولا أعرف في أي يوم. بينما كان يمكن لي أن أتذكر بالضبط كلّ ما هو مرتبط بعلاقتي مع أ.، احتجاجات شهر تشرين الأول (أوكتوبر) في الجزائر، الحرارة والسماء الغائمة يوم ١٤ أيلول من العام ٨٩، وحتى التفاصيل الأكثر تفاهة كمثل شراء خلاط في شهر حزيران، عشية إحدى اللقاءات، كان من المستحيل أن أربط كتابة صفحة معينة بالمطر الهاطل أو بواحد من الأحداث التي شهدها العالم منذ خمسة أشهر، كسقوط جدار برلين وإعدام تشاوسيسكو. لا علاقة أبداً لزمن الكتابة بزمن العشق.

ومع ذلك، حين بدأت الكتابة، كان ذلك من أجل البقاء في هذا الزمن، حيث كلّ شيء يسير في الاتجاه عينه، من اختيار فيلم ولغاية أحمر الشفاه، أي في اتجاه شخص واحد. فزمن «الماضي الناقص» الذي اخترته تلقائياً منذ الأسطر

الأولى ما هو إلا زمن الاستمرارية التي لا أريد أن تنتهي، زمن «في هذا الوقت كانت الحياة أجمل» التي تمثل استعادة أبدية. مرد ذلك أيضاً إلى إعادة انتاج ألم يحل مكان الانتظار السابق، الاتصالات الهاتفية ومواعيد اللقاءات وإعادة قراءة الصفحات الأولى التي تملك الطبيعة الأليمة عينها بدلاً من النظر ولمس مبذل الحمام القطني الذي كان يرتديه في منزلي والذي ينزعه في اللحظة التي يرتدي فيها ملابسه كي يغادر. الفرق: هذه الصفحات ستحتفظ دائماً بمعنى بالنسبة إلي، وربما لآخرين، في حين أن مبذل الحمام ـ الذي لا وجود له إلا عندي ـ فلن يستعي يوماً أي شيء وسوف ألحقه بكومة من الخرق. بينما أكتب هذا، عليّ البحث عن طريقة لإنقاذ هذا المبذل.

لكنني ما زلت على قيد الحياة. أي أن الكتابة لا تمنعني أبداً، في اللحظة التي أتوقف فيها، من الإحساس بفقدان الرجل الذي لن اسمع صوته مجدداً، ولا لهجته الأجنبية. لن ألمس جلده ثانية، هذا الرجل الذي يعيش في مدينة باردة وجوداً من المستحيل أن يمثلني ـ هذا الرجل الحقيقي من المَتعذر الإمساك به كالرجل المكتوب الذي أشرت إليه بحرف أ. لذا سأستمر في استعمال الوسائل التي تساعد على

احتمال الأسى، التي تعطي الأمل حين لا يعود موجوداً بشكل منطقي: فتح ورق اللعب، وضع عشر فرنكات في قدح شحاذ في «أوبير» مع التمني «بأن يتصل هاتفياً، بأن يعود» الخ. (وربما في العمق، تشكل الكتابة جزءاً من هذه الوسائل».

على الرغم من قرفي في لقاء الناس، وافقت على المشاركة في مؤتمر في كوبنهاغن لأنه سيشكل فرصة في أن أرسل له إشارة حياة سرية، بطاقة بريدية وكنت مقتنعة أنه سيجيب عليها. منذ لحظة وصولي إلى كوبنهاغن، لم أفكر سوى بهذا الأمر، أن أشتري بطاقة بريدية وأن أنقل عليها الجمل القليلة التي صغتها بعناية قبل رحيلي، وأن أجد صندوق بريد. في طائرة العودة، قلت لنفسي بأني لم آتي إلى الدانمارك إلا لكي أرسل بطاقة بريدية إلى رجل.

تتملكني الرغبة في إعادة قراءة واحدٍ من تلك الكتب التي قرأتها بشكل مبهم حين كان أ. هنا. كان الانتظار كما أحلام تلك الفترة موضوعة فيها وبأني سأجد مرة أخرى شغفي المماثل الذي كنت أحياه سابقاً. ومع ذلك قررت أن لا أقوم بذلك، إذ كنت أتراجع متطيرة في اللحظة التي كنت سأفتح فيها الكتب، كما لو أن «آنا كارينينا» كانت واحدة من

الأعمال الباطنية التي يشترط فيها أن لا تقلب أي صفحة منها بدون أن تشعر بالتعاسة.

ذات مرة، جاءتني رغبة عنيفة في الذهاب إلى ممرّ «كاردينيه»، الواقع في الدائرة السابعة عشرة، هناك حيث أجهضت بسرّية قبل عشرين سنة. بدا لي أنه من الضروري قطعاً أن أشاهد الشارع من جديد، والمبنى، وأن أصعد لغاية الشقة حيث حدث ذلك الأمر. كما لو كنت آمل، وبطريقة مشوشة، بأنه يمكن لألم قديم أن يحيّد الألم الحالي.

نزلت في محطة «ماليرب» في ساحة لا يشكل لي اسمها الحالي، وبدون شك، أي شيء. توجب علي أن أسأل بائع خضار عن طريقي. كانت اللافتة التي تشير إلى ممرّ «كاردينيه» نصف ممحوة. أعيد طلاء واجهات المباني باللون الأبيض. اتجهت إلى الرقم الذي أتذكره ودفعت الباب، وهو واحد من الأبواب القليلة التي لا تتطلب رقماً سرياً. على الحائط قائمة بأسماء الساكنين. المرأة العجوز، الممرضة، كانت قد توفيت، أو رحلت إلى بيت للمسنين في الضاحية، ومِن يسكن الشارع اليوم هم أناس من الطبقة العليا. وبينما كنت أتقدم باتجاه جسر كاردينيه، رأيت نفسي وأنا أسير إلى جنب هذه المرأة التي أصرت على مرافقتي إلى المحطة

القريبة، بدون شك، كي تتأكد من أنني لن أنهار أمام منزلها والمسبار في بطني. فكرت بأنني «كنت هنا ذات يوم». كنت أبحث عن الاختلاف ما بين هذا الواقع وما بين المتخيل، ربما ببساطة، عن هذا الشعور بالجحود، بأنني كنت هنا ذات يوم وهو إحساس لم أشعر به تجاه أي شخصية روائية.

عدت وصعدت في مترو ماليرب. لم تبدل هذه الرحلة شيئاً بيد أنني كنت راضية بأنني قمت بها، بأنني عدت واستأنفت إحساساً بالضياع كان سببه الرئيسي رجل أيضاً.

(هل هناك أحد غيري ممن يعودون إلى الأمكنة التي أجهضوا فيها؟ أسال نفسي إن لم أكن أكتب لكي أعرف إن كان الآخرون لم يقوموا بأمر مماثل أو لم يشعروا بالأمر عينه، وإلا، ولكي يجدوا أنه من الطبيعي أن يشعروا بذلك. بل وأن يعيشوا ذلك بدورهم متناسين أنهم قرأوا ذلك، ذات يوم، في مكان ما).

إننا الآن في شهر نيسان. في الصباح، يحدث لي أن أستيقظ من دون أن تخطر علي بالي فوراً ذكرى أ. من جديد، أصبحت فكرة التمتع «بمتع الحياة الصغيرة» تسبب لي خوفاً أقل، كمثل التحدث مع الأصدقاء. لا أزال دوماً في

زمن الشغف (لأنني ذات يوم لن أنتبه إلى أنني لم أفكر بـ أ. عند استيقاظي)، إلا أنه زمن مختلف، لقد توقف عن أن يكون مستمراً[1].

تعاودني بغتة تفاصيل عنه، عبارات قالها لي. كمثل أنه ذهب إلى سيرك موسكو حيث إن مدرب القطط كان «مدهشاً». للحظة، أشعر بامتلائي بطمأنينة كبيرة، نفس الطمأنينة التي أشعر بها عند استيقاظي من حلم أراه فيه ولا أعرف عندها أنني كنت أحلم. ثمة شعور بأن كلّ شيء عاد إلى انتظامه، وبأنني «الآنِ أفضل». أصبح بإمكاني أن أقيس بأن هذه الأمور تعود إلى شيء صار بعيداً، وأنه مرّ شتاء آخر، وأن مدرب القطط ربما قد غادر السيرك، وأن عبارة «إنه مدهش» تنتمي لراهن فَسُدَ.

عند انعطافة حديث ما، أعتقد أنني أفهم فجأة تصرفا لـ أ.

---

(١) أتخلى عن «الماضي الناقص»، عمّا كان ـ لكن إلامَ؟ ـ لصالح «الحاضر» ـ لكن منذ متى؟ ـ إذ يشكل أفضل الحلول لأنني لا أستطيع الانتباه على التحول الدقيق لشغفي تجاه أ.، يوماً بعد يوم، فقط أستطيع أن أتوقف عند الصور، المعزولة من إشارات الواقع حيث إن تاريخ ظهورها ـ كما عند تاريخ حدوثها العام ـ لا يمكن تحديدها بيقين.

أو أنني أكتشف ملمحاً من علاقتنا لم أكن تخيلتها. أخبرني زميل عمل كنت أتناول القهوة معه أنه ارتبط بعلاقة جسدية مع امرأة متزوجة كانت أكبر منه سناً بكثير: «حين كنت أخرج من منزلها، في المساء، كنت أتنشق هواء الشارع شاعراً بإحساس مدهش من الرجولة». ظننت أن أ. ربما شعر بالإحساس عينه. كنت سعيدة بهذا الاكتشاف الذي من المستحيل التحقق منه الآن، كما لو أنني أمسكت بشيء لا يفسد، وهذا ما لا تمنحني إيّاه الذكريات.

هذا المساء، في القطار، هناك فتاتان تتكلمان قبالتي. سمعت «بأنهم في جناح باربيزون». بحثت عمّا يمكن أن يذكرني به هذا الاسم وتذكرت، بعد عدة دقائق، بأن أ. قال لي إنه ذهب إلى هناك ذات نهار أحد مع زوجته. إنها ذكرى مساوية لغيرها، على سبيل المثال، لتلك التي ذكرني بها اسم بروني حيث كانت تسكن صديقة لم أعد أراها. لقد استعاد العالم، إذاً، معناه خارج أ.؟ الرجل ذو القطط في سيرك موسكو، المبذل القطني، باربيزون، كلّ النص الذي بنيته في رأسي يوماً بعد يوم منذ الليلة الأولى، عبر صور وحركات وعبارات ـ أي عبر مجموع إشارات التي تؤلف الرواية غير المكتوبة لشغف يبدأ بالتفكك. من هذا النص الحيّ، والذي

أمامنا ليس سوى فتات، أثر صغير. وكما النص الآخر، لن يمثل لي شيئاً، ذات يوم.

ومع ذلك لا أنجح في مغادرته، بقدر لم أنجح في مغادرة أ. السنة الماضية، في الربيع، حين بدا انتظاري ورغبتي غير منقطعين. مع العلم أنه على المقلب الآخر من الحياة لن يكزن هناك أي شيء آمله من الكتابة، إلا ما يظهر خلال ما نتركه فيها. أن أستمر في ذلك، يعني أيضاً، أن أدفع الكرب الذي يمكن أن أعطيه للآخرين في قراءته. طالما أنني في حاجة إلى الكتابة، فلن أعير هذه الحقيقة أي اهتمام. الآن وبما أنني ذهبت إلى أقصى هذه الحاجة، أنظر إلى هذه الصفحات المكتوبة بدهشة وبنوع من الخزي، لكنني لم أشعر أبداً وأنا أعيش شغفي، ولا حين كتبته، بل على العكس من ذلك. هي أحكام العالم وقيمه «العادية» التي تتقارب مع نية النشر. من الممكن أن واجب الإجابة على أسئلة من نوع «هل هي سيرة ذاتية؟» تدفع إلى تبرير هذا الأمر أو ذاك، وما يمنع الكثير من الكتب من أن ترى النور، إلا إن جاءت على شكل روائي حيث أن تتم المحافظة على المَظاهر.

هنا أيضاً، أمام هذه الأوراق المغطاة بكتابتي المكشوطة،

التي لا يستطيع قراءتها شخص غيري، يمكنني أن اعتقد بأمر خاص، طفولي تقريباً ولا يحمل أي نتائج ـ مثل تصريحات الحب والجمل الشبقية التي أكتبها خلال الحصص التدريسية وأخفيها في حافظات دفاتري كما كلّ ما يمكننا كتابته بطمأنينة، ولا يعاقبنا عليه أحد، طالما أننا على يقين بأن أحداً لن يراها. حين أبدأ بطباعة هذا النص على الآلة الكاتبة وحين يظهر لي بحروف عامة، ستكون براءتي قد انتهت.

شباط ٩١

كان يمكن لي أن أتوقف عند الجملة السابقة وأتظاهر بأن شيئاً ممّا حدث في العالم وفي حياتي لا يمكن له أن يتدخل في هذا النص. كان يمكن أن أتعامل معه كأنه خرج من الزمن، وهو جاهز للقراءة، في الحصيلة العامة. لكن طالما أن هذه الصفحات لا تزال صفحات شخصية، وفي متناول يدي كما هي عليه الآن، تبدو الكتابة مفتوحة دائمة، يبدو أنه من الأهمية أن أضيف بأن الواقع جاء ليحمل إليّ إمكانية تغيير صفة.

ما بين اللحظة التي توقفت فيها عن الكتابة، في أيار الماضي، والآن، ٦ شباط ١٩٩١، انفجرت الأزمة بين

العراق والتحالف الدولي. إنها حرب نظيفة وفق «البروباغندا»، على الرغم من أنه سقط على العراق «عدد من القذائف أكثر مما سقط على ألمانيا طيلة الحرب العالمية الثانية» (وفق صحيفة «لوموند» هذا المساء) وبأن ثمة شهوداً قالوا أنهم رأوا في بغداد أطفالاً أصبحوا صمّاً من جراء الانفجارات وهم يسيرون في الشوارع مثل السكارى. ليس هناك سوى أحداث يتم الإعلان عنها ولا تحصل أبداً مثل الهجوم البرّي الذي سيشنه التحالف الدولي، وهجوم صدام حسين الكيميائي، انفجار في غاليري لافاييت. إنه القلق عينه، الرغبة ذاتها ـ المستحيلة ـ في معرفة الحقيقة كما في زمن الشغف. ينتهي هنا التشابه. لم يعد هناك ولا في أي مكان أي حلم أو أي تخيل.

في أول أحد من الحرب، في المساء، رنّ جرس الهاتف. صوت أ. معلق لعدة ثواني، تملكني الرعب. رددت اسمه وأنا أبكي. كان يقول «هذا أنا، هذا أنا» ببطء. كان يريد أن يراني على الفور، وبأنه سيستقل سيارة تاكسي. في النصف سِاعة التي تبقت لي قبل وصوله، تبرجت، واستعددت وأنا في حالة من الهيام. انتظرت لاحقاً في الممر، ملتفة بالشال الذي لم يره مطلقاً. كنت أنظر إلى الباب بذعر. دخل من

دون أن يطرق الباب، كما ذي قبل. بدا لي أنه شرب كثيراً، إذ كان يترنح وهو يضمني وقد تعثر على الدرج المفضي إلى الحجرة.

فيما بعد، لم يرغب في تناول شيء سوى القهوة. حياته، مثلما يبدو، لم تتغير، الوظيفة عينها في الشرق كما في فرنسا، لم يرزق بأولاد على الرغم من أن زوجته تتمنى إنجاب واحد. لا تزال مشيته فتية وهو في الثامنة والثلاثين من عمره، وثمة تجاعيد أكثر في الوجه. أظافره أقل نظافة، ويداه أكثر خشونة، بدون شك بسبب البرد في بلاده. ضحك كثيراً حين لمته على عدم إعطائي أي إشارة على حياته منذ رحيله: «كان يمكنني أن أتصل، وأقول لك صباح الخير، وماذا بعد؟» لم يستلم البطاقة البريدية التي أرسلتها له من الدانمارك إلى مكان عمله القديم. ارتدينا من جديد ملابسنا المختلطة على بلاط الغرفة وأوصلته إلى الفندق الذي ينزل به والواقع بالقرب من ساحة «الاتوال». عند الإشارة الحمراء، في ناتير، عند جسر نويللي، قبلنا بعضنا وداعبنا بعضنا.

في نفق «لا ديفانس»، خلال عودتي، كنت أفكر «أين هي قصتي»؟ من ثم (قلت): «لم أعد أنتظر شيئاً».

رحل مجدداً بعد ثلاثة أيام من دون أن نرى بعضنا مرة

جديدة. على الهاتف، وقبل رحيله، قال لي: «سأتصل بك». لا أعرف إن كان ذلك يعني أنه سيتصل بي هاتفياً من بلاده أو من باريس حين تحين له الفرصة في العودة. لم أسأله عن ذلك.

أشعر أن عودته هذه لم تحدث. إنها غير موجودة ولا في أي مكان في زمن قصتنا، فقط هي مجرد تاريخ، ٢٠ كانون الثاني. الرجل الذي عاد هذه الليلة، لا علاقة له أبداً بذاك الرجل الذي كنت أحمله داخلي خلال السنة التي كان فيها هنا، وفيما بعد حين كنت أكتب. لن التقي بهذا الرجل مجدداً. ومع ذلك، هي هذه العودة، غير الواقعية، غير الموجودة تقريباً، هي التي تعطي لشغفي معناه الكامل، وهو أنها لم تحدث أبداً، بأنني كنت خلال عامين الواقع الأعنف والأقل قابلية للتفسير.

في صورته الوحيدة التي أملكها له، الضبابية قليلاً، أرى رجلاً ضخماً وأشقر، ذا شبه بعيد بألان دولون. كلّ شيء فيه كان ثميناً بالنسبة إليّ. عيناه، فمه، عضوه، ذكريات طفولته، طرِيقته العنيفة في الإمساك بالأشياء، صوته.

رغبت في تعلم لغته. احتفظت بكأس كان قد شرب منه، من دون أن أغسله.

تمنيت لو أن الطائرة التي عدت بها من كوبنهاغن كانت تحطمت لو لم يتسنى لي رؤيته ثانية.

ألصقت هذه الصورة في «بادو»، في الصيف الماضي، على حافة قبر القديس أنطوان، مع الذين كانوا يتركون منديلاً أو ورقة مضمومة تحمل طياتها توسلاتهم، راجية أن يعود.

أن يكون استحق ذلك أم لا، لا يعني بالطبع أي شيء. وأن يبدأ ذلك كله في أن يكون غريباً عني وبأن الأمر عائد لامرأة أخرى، لن يغير شيئاً في هذا الأمر: بفضله، اقتربت مت الحدود التي تفصلني عن الآخر، لدرجة أنني أتخيل أحياناً أنني اجتزتها.

قست زمن جسدي بأكلمه بشكل مختلف.

اكتشفت ما بوسعنا أن نقوم به، أن نقول كلّ شيء. الرغبات العظيمة أو القاتلة، غياب الكرامة، المعتقدات والسلوكيات التي كنت أجدها عديمة المعنى عند الآخرين طالما أنني لا أمتلك مثلها. لقد ربطني أكثر بالعالم بعد رحيله.

قال لي: «لن تكتبي كتاباً عني». لكنني لم أكتب كتاباً لا عنه ولا عن نفسي. فقط حولت إلى كلمات ـ لن يقرأها بدون

شك ـ وهي كلمات ليست موجهة له، بل حملها إلي وجوده وحده. هي نوع من الهبة المردودة.

حين كنت طفلة، كان الترف بالنسبة إليّ، معاطف الفرو، الأثواب الطويلة، والفيلات على شاطئ البحر. فيما بعد، أعتقد أنه يتمثل في عيش حياة ثقافية. يتراءى لي الآن أنه القدرة على عيش شغف لرجل أو لامرأة.

# لايبزيغ، عبور

كتبت سنة ١٩٩٠، ونشرت سنة ١٩٩١ في *Instants*، نشرة المعهد الفرنسي في لايبزيغ

*الأحد ١١ نونبر/ تشرين الثاني ١٩٩٠*

من المطار، عبرنا قرى صامتة، بادية منبسطة، خصبة ربما، كيف أعرف ذلك في هذا الفصل حيث الأرض جرداء؟ الطقس معتدل وضبابي. ثمة علامة مقلقة واحدة، تشير إليها آلات ضخمة مصوبة نحو السماء. علمت أنها آلات لاستخراج فحم «ليغنيت». في سنة واحدة يوماً بيوم، حدثت واقعة سقوط الجدار الذي لا مثيل له، مفضيا إلى زوال دولة، ما لم يظنه أحد ممكناً، وإلى توحيد الألمانيتين. في سنة فقط حصلت اضطرابات شتى. لماذا لا يرى التاريخ في أي مكان، ولا يدرك منذ الوهلة الأولى، مثلما في لوحة؟ أنظر حولي، ولا أرى سوى منظر ريفي ثقيل إلى حد ما، بضِياعه وغِياضه، ذات ظهيرة يوم أحد.

بلا شك، تخيّلتُ، مثل جميع الفرنسيين الملقمين

بالصور التلفزيونية والاستطلاعات الغنائية حول التغير الكبير، أن الجمهورية الديمقراطية الألمانية سابقا تحولت إلى غريسة عشب، وأصبحت فريسة فرح دائم في المدن والأرياف. شيء ما من مناخ ثورة ٨٩، على الأقل كما أظهرته الاستعراضات والبرامج التلفزيونية العام الماضي. سيتعين علي أن أتعود على هذه الفكرة؛ أي أن ما سأراه في لايبزيغ هو الماضي أساساً، ماضي أربعين سنة من رأسمالية الدولة (لا رأسمالية حقة) المنقوشة على الجدران والملابس وحركات الناس. لا يموت الماضي إلى بالنسبة للغرباء عن هذا البلد، لكنه ما يزال مكوناً من الحاضر بالنسبة لسكان الهنا. «انظري»، كتبت، لكن ماذا سأنظر خلال يومين، غير بعض المظاهر. لا الواقع، ولا التاريخ، يُرى منذ الوهلة الأولى.

زد على ذلك، ليست نظرتي بريئة. أتذكر ذكرى من الطفولة. في الصيف، كان الباريسيون في العطلة يشردون في الحي الشعبي بالمقاطعة حيث كنت أسكن، يتفحصوننا بفضول، ويرثون بصوت عالٍ لظروف حياتنا، بينما نحن نلعب ولا نطلب منهم شيئا. ألست اليوم، أنا المسافرة القادمة من الغرب، أتمتع بنفس الحالة النفسية مثل أولئك الباريسيين الميسورين القدامى، الواثقين من سعادتهم واستعلائهم؟ على

الأقل ـ وهذا ما يواسيني ـ لا أملك ما أبيع، خلافاً لهذه الصفوف من رجال الأعمال الذين يملؤون الطائرة، وهم عاكفون على ملفاتهم، مثل سرب حشرات متأهبة للانقضاض على أرض ما...

بدأ المطر يهمي بضواحي لايبزيغ. فأول شيء يسترعي الانتباه عند بلوغ المدينة لا يُرى، رغم وجوده في كل مكان، في الداخل والخارج. إنها رائحة فحم الليغنيت. وهذا يبعث على التفكير في خليط من قهوة محمصة للغاية ومواد كيميائية مقرِفة. من المستحيل أن تشرع نافذة الغرفة المفرطة في التدفئة (٢٦ درجة على الترمومتر)، فالرائحة منتشرة هنا، يجعلها المطر لاذعة أكثر. ثمة ذكرى أخرى، قريبة العهد، هي ذكرى رائحة رهيبة ذات نسمة حلوة، تسبح بلا توقف فوق مدن تكرير البترول قرب «لوهافر»، يبدو أن الناس تعودوا عليها. وربما هنا أيضاً.

ثم هناك منظر هذه الأنقاض السوداء، وهذه البقايا الجدرانية، وهذه المباني الفخمة التي نرى خرابها عن قرب، كأن قصفاً غريباً أصاب المدينة قبل سنوات، ولم ترمم أو يعاد بناؤها.

الشوارع خالية. إنها تمطر، واليوم أحدٌ. في المطعم «الأنيق» بالأحرى، حيث سنتعشى، أخبرنا رئيس النُّدل، المستعجل والمتصلب في الآن ذاته، أن مائدة واحدة بقيت شاغرة، وهي محجوزة خلال الساعة الموالية. يجب إذاً أن نأكل بسرعة، وأن نغادر المكان بعد خمسين دقيقة. ثمة ازدحام في الأمكنة حيث يمكن أن نستمتع بما نفتقده إليه، لكن بأي ثمن؟ ومن يتعشى هنا؟ أهم سكان لايبزيغ، أم الأجانب، أصحاب مصانع ميونيخ؟

أسفل رواق مفتوح، هناك متاجر منتوجات فاخرة، وحليّ، وأوانٍ فضية، وملابس وعطور.. يظهر ترتيبها السيء قلة خبرة عارضها. فما يهم أكثر هو المنتوج الفاخر مهما نراكمه ونعرضه، لا المادة الجميلة التي تشكل جزءا من «اللوحة». إذ لم تموه قيمة البضاعة، حتى الآن، بقيمة جمالية.

والحياة المنعدمة في الشوارع كامنة في المقاهي القديمة الممتلئة بأناس يتعشون أو يشربون، والطافحة بالدخان. عثرنا على مكان في واحدة منها، وفي الطابق الأرضي قاعات عَديدة، لكن حرارتها خانقة وضجيجها يصم الآذان. إلى المائدة المجاورة، الطويلة والمغطاة بشرشف أبيض مثل باقي

الموائد، تجلس امرأة وحدها، حيث وضعت عشر كؤوس مملوءة بالنبيذ أمام المقاعد الفارغة لضيوف غائبين. تبدو مثل كاهنة عشاء غريب. كل شيء يدعو، رغم الضجيج أو بسببه، إلى السبات، وإلى حلم ثقيل. إذ ينتهي شغور يوم الأحد وامتلاؤه وضجره إلى هذا الصنف من الاحتفال البطيء بالجعة، بعيداً عن كل التحولات. هنا تتكرر طقوس ألمانية قديمة جداً. ما إن نغادر المقهى، حتى نشعر بالبرد. وتعود رائحة الليغنيت المنسية. ومن كنيسة تنبعث الموسيقى وترانيم «قداس الموت» لموزارت.

*الاثنين ١٢ نونبر/ تشرين الثاني*

في مكتب الاستقبال بالفندق حيث نزلت، تدبر الموظفة الحجز مستعينة بورقة كبيرة يظهر فيها جدول ذو مدخل مزدوج، يتضمن الأيام وأرقام الغرف، تمرر مسطرة كبيرة فوقه، حتى تهتدي إلى غايتها. رغم كل شيء، ثمة أخطاء. تتشنج المرأة، فتتحرك المسطرة بتوتر فوق الجدول. سيكون من السهل أن نرى في هذا المشهد رمزا من رموز «عالم الأمس» ورتابته العنيدة. بعد أن أزعجتني، أصبحت المرأة تهز مشاعري. هل يسهل على تلك المرأة الخمسينية، التي

يعني لها التحول السياسي والاقتصادي ما يعنيه، أن تستجيب بطريقة أخرى غير الخوف والتوتر تجاه ما طلب منها في الآونة الأخيرة، ولا تدركه إلا بارتباك؟

الفرار من الرموز إذاً، هذا الإغراء الدائم لدى الرحالة الأجنبي والذي يشوش الرؤية، يصير أصعب أمام الواجهات الجميلة التي أشاهدها الآن في وضح النهار، والتي لا تؤوي خلفها غير الأنقاض. هل هي صورة النظام السابق؟ لا يهم، فالأمر سيان. فالقلب ينقبض لرؤية خراب هذه البيوت القديمة، هذا الجمال الجريح والمهجور. تندفع أشجار مما كان طابقاً أرضياً، وتنفتح أدراج على الفراغ. ثمة أسماء على لوحات بوابات مداخل مغلقة. أين ذهب الناس الذين سكنوا هنا؟ وفي أي سنة قرروا الهروب من جدران كانت ستنهار على رؤوسهم؟ يبدو أن تدهور المدينة كان طبيعياً، حتى إن الهيئات المسيرة لها، التي أصدرت مرسوماً يقضي بـ«نهاية الزمن» على غرار «نهاية التاريخ»، أنكرت أفعال إتلافها، ومنعت أي ترميم.

الحركة الكثيفة هذا الصباح علامة ظاهرة على التغير ـ أتذكر شوارع مهجورة في برلين الشرقية خلال هذه الساعة ذاتها ـ بلا سيارات «ترابانت» التي كادت تختفي. فما الأمر

المدهش في أن تكون السيارة المطمع الأول؟ ألم تكن كذلك بفرنسا خلال الخمسينيات؟ تتأسف الأوساط المثقفة مما يسمونه، بالنسبة للآخرين، «سباقاً إلى الخيرات الاستهلاكية»، بازدراء متعالٍ، كأنها تستثني نفسها منه، وكأنها هي نفسها لا تملك دراجة، أو مذياع «هاي فاي»، أو حتى حاسوباً. فلم تكون الرغبة في امتلاك هذه الأشياء «قلة روح» ونزعة مادية متوحشة هنا، لا هناك؟ يقول المثقفون «إننا لا نعطي أهمية لهذه الأشياء». أجل، لكنهم يملكونها. ما نؤاخذ عليه الناس الذين ينقضون على أشياء كانت إلى عهد قريب مجهولة أو نادرة هو أن نتباهى، بشكل جماعي، بلا مواربة، برغبة يأمل كل واحد أن يبقيها سرية. ولأني عشت ذلك، فإنني أعرف أن التوق إلى شيء ما غير أشياء أخرى يعتبر ترفاً.

شعرت، في هذا المساء، داخل قاعة بالجامعة، وأنا متوقدة ومتيقظة، بالتأثر، وبالعجز، أكثر من المعتاد في هذه المناسبات، أمام الأمل الذي يشيعه الحضور. ما الذي يمكن أن تقدمه كاتبة هنا والآن، خارج إظهار رابطة وتعاطف متبادلين بين بلدين يتجسدان في وصولها إلى لايبزيغ؟ أتخيل أنني لا أستطيع أن أمنح سوى شَبَهي، أقصد تشابه تمزق

وعبور بين عالمين. ينبثق تاريخ طفولتي من وسط مهيمَن عليه، ثم ينتقل إلى وسط مهيمِن، كنت أستشعره قريباً من تاريخ شعب رغب في العبور إلى «الغرب»، لكنه يجد نفسه الآن في الفوضى، بعيداً عن علامات العبور.

*الثلاثاء ١٣ نونبر/ تشرين الثاني*

سطعت الشمس خلال الساعات الأخيرة في لايبزيغ. في المتحف ـ الذي مازالت تذكرة زيارته زهيدة مقارنة مع المؤسسات الأخرى، أشاهد لوحة «بوكلن» الكئيبة والرهيبة *«جزيرة الموتى»*، واللوحة المضيئة *«عصور الحياة»* لـ«فريدريك» ـ المتكاملتين حتى إن وجودهما في مكان واحد محيّر ـ إذ يمثل «هانس بالدونغ غرين»، الذي يبرز الجسد الأنثوي من الطفولة حتى الشيخوخة، بصفائه الذائع أكثر فأكثر، وبياضه المشوه، صورةَ الزمن والموت غير المحتملة.

في غضون سنتين، أو خمس، أو عشر، سآتي ربما إلى لايبزيغ، مثلما نذهب إلى هامبورغ، أو فيينا، أو كوبنهاغن؛

سائحة، بلا هواجس، ولا أسئلة. سأتجول في شوارع سترتفع فيها مبانٍ جديدة ومضيئة عوضاً عن منازل القرن التاسع عشر الخربة، التي يبدو أن المعنيين لم يفلحوا في المحافظة عليها. سأعود لمشاهدة لوحات «فريدريك» و«بالدونغ». لكن وجب أن نأتي الآن، في هذا الزمن غير المسمى الواقع بين توازنين؛ أن نأتي ونرحل بلا يقين.

# من ضفة القرن الأخرى

كتبت سنة ١٩٩٨، ونشرت في «المجلة الفرنسية الجديدة»[(١)]، يونيو ١٩٩٩، عدد ٥٥٠.

(١) La Nouvelle Revue Française

كان لها نفس اسم بطلة رواية *«حياة»* لـ«موباسان». لم تثر حياتها اهتمام أحد خلال الجزء الأكبر من القرن، حيث لم يعرف اسمها في العالم كلّه إلا في العقد الأخير. كانت «جين كالمان» (Jeanne Calment) أكبر مخلوق بشري حي سنًّا. وعلامة شهرتها حكايات غريبة كانت تروج حولها، من قبيل: «ما هو أقدم سنور؟ ـ هرّة «جين كالمان»». كان كل عيد من أعياد ميلادها يخلّد كأنه مأثرة. استضافتها جميع القنوات التلفزيونية والإذاعية، وسئل طبيبها عن حالة زبونته وعاهاتها وحظوظها في بلوغ سنة ٢٠٠٠. كانت تُرى على نحو عابر في بيتها حيث تقضي فترة التقاعد، تتلكأ ببضع كلمات. يراسلها العديد من الناس يهنئونها بـ«بلوغها هذا العمر»، كما يُهنَّأ من يبلغون مناصب سامية أو يحصلون على شواهد عليا ـ يخصونها من حيث لا يشعرون بالمشروع

القصي والعنيد، بأن تصبح عميدة الإنسانية، بينما كان عليها أن تستجيب لقدرها الأصلي بلامبالاة تامة.

لم تعد حياتها، بما هي جماع أفعال ورغبات وعذابات، تثير الاهتمام أكثر مما كانت تفعل من قبل. لم تكن تستثير الحلم مثلما كانت تفعل «لايدي دي»[1]، ولم تكن قدوة مثلما كانت الأم «تيريزا». قيل إنها حياة بورجوازية ثرية، مترفة بالأحرى، لا تعنى بمسؤوليات جسيمة تجاه الأطفال. ليس أمامها سوى أمرين أو ثلاثة، أن تركب الخيل، وتدخن السيجار، وتشرب النبيذ، ما يضفي عليها فيضاً حالماً. إذ يمكن أن نتخيل «جين كالمان» في صورة «إيما بوفاري» تعين موعداً في الغابة لعاشق ذي شعر موثوق إلى شجرة وأحزمته متروكة فوق العشب، أو في صورة «فتاة» «بول» أو «فيكتور مارغريت»، تظهر نظرتها وقحة خلف دخان سيجار هافانا يوسع دائرة فمها بطريقة غير محتشمة. لكن كل هذه الأمور كانت بعيدة كل البعد، إذ ربما لم تحدث أبداً.

لم تكن تملك شيئاً تنقله، لا عملاً فنياً، ولا أفكار، ولا

(١) المقصود بها الأميرة «ديانا».

شهادة عن تجربة فريدة، وإن كانت فاضحة. بل إنها لم تكتب مذكراتها. رسالتها الفلسفية تنتبه إلى أغنية «موريس شوفاليي» في جولته الثامنة والسبعين: «في الحياة لا داعي للقلق». عملها الوحيد حياتها المتواصلة بعيداً عن أي رجاء. كانت «جين كالمان» مجرد زمن، بل تجسد الزمن ذاته.

هي الزمن الذي لم نعشه. وجودها يغوص إلى حيث تعجز أن تذهب ذاكرتنا، ولا ذاكرة آبائنا، ولا ذاكرة أجدادنا. شاهدت عيناها عالما لم نعد نستطيع أن نتمثله اليوم. كان عمرها عشر سنوات يوم جنازة «فيكتور هوغو»، وعشرين سنة أثناء قضية «دريفوس»، وأصبحت امرأة ناضجة عندما انطلق جنود حرب ١٩١٤ والورود معلقة على بنادقهم. وكما تقول العبارة المسكوكة، «لربما عرفت» «موباسان» و«فيرلين» و«زولا» و«بروست» و«كوليط» و«رافيل» و«موديلياني» الذين هم أصغر منها سناً، والذين توفوا قبل زمن طويل. يمكن أن نسرح بأفكارنا في صورة هذه المرأة الصغيرة التي تفتقر إلى تاريخ بسهولة، خصوصا أنها كانت بلا تاريخ مثل علامة على جميع صفحات القرن الذي اجتازته. اجتازته سالمة، بلا ذكريات تقريباً، لأن الذكرى التي نميل إلى الإيمان بها من

ذاكرة القرن كلها صارت نسياً منسياً، لا تستحضرها سوى كحدث تاريخي بارز، مثل اغتيال عائلة القيصر سنة ١٩١٧. لم تكن سوى زمن محض، زمن بيولوجي تخلص من الأهوال والاضطرابات.

اعتاد الغرب، منذ قرون عديدة، على قياس قدر الإنسان على الطبيعة، على الصخور والأشجار، والتأمل في الأنقاض والأشباح المغبرة التي تلاحقها. في كل صيف، يأتي ملايين السياح للتعرف على آثار الماضي داخل قصور «لالوار» أو فوق جسر «دي غار». لكن لا شيء يضاهي الانفعال الذي تمنحه رؤية كائن حي، يحمل جسده عدداً لا مثيل له من السنوات. لم تعد «جين كالمان» تبصر، وتناقص سمعها كثيراً، وباتت تنعس طيلة النهار مثل القطط، ورغم ذلك نريدها أن تصمد مهما كلف الأمر. نريد أن نحتفظ بهذا الجسد المنكمش مثل رقّ، لكنه كان جسد الطفلة الصغيرة نفسها التي تجري في شوارع «أرل» خلال ثمانينيات القرن التِاسع عشر، وعيناها الضريرتان اللتان رأتا عالماً اختفى إلى الأبد. أردناها، بوصفها إلهة مرشدة للأرواح، أن ترافقنا من ضفة القرن الأخرى.

لن تصنع «جين كالمان» البون الشاسع بين القرن التاسع عشر والقرن الحادي والعشرين. لقد توفيت خلال شهر غشت/ أغسطس ١٩٩٧، عن سن تناهز ١٢٢ عاماً.

بدا لي، على نحو غريب، أن أرى نهاية القرن العشرين معها. أحسست بهذا القرن ينغلق ويضيق بكليته التامة خلفنا. ودفعة واحدة، أصبح القرن التاسع عشر بما هو عليه في كتب التاريخ وكتيبات الأدب، مجرد مرحلة منكمشة يبدو فيها أن الإمبراطورية الثانية تلامس الأولى، وأن «شاتوبريان» معاصر لـ«زولا» و«ستايل» صديقة لـ«جورج ساند». هي مرحلة الحربين العالميتين، والمستعمرات، والإيديولوجيات المفهرسة حسب الأصول، والكتّاب المصنفين، من «بروست» إلى «ناتالي ساروت»، ومن «جيد» إلى «موديانو». رأيتُنا نصبح، خلال بضع سنوات تاريخية ومؤرخة، أناساً من القرن الآخر. وأصبح فيلم «صيف ٤٢» وكتاب «صيف ٨٠» ينتميان إلى زمن سبق، إلى ما قبل التاريخ. ولنظهر بمظهر لائق، سيجعلنا اختفاء الفرنكات بسرعة أناساً من عصر بائد. أن أقول «إنني كنت أربح عشرة ملايين فرنك» يكفي لأن نصنف أنفسنا في حقبة ولّت، مثل نبلاء القرن التاسع عشر الذين كانوا ما يزالون يعدون بالريال. وفي الكتب، ستكون

هناك حواشٍ لشرح قيمة الفرنكات. سيراودنا الإحساس بأننا كنا شباباً في مجرة أخرى.

استشعرت اكتمال شيء ما كان يوحدنا جميعاً، ويجعل منا أناساً ينتمون إلى هذا القرن، شيء لن يقبل الانتقال إلى القرن الموالي، لا في الكلمات، ولا في الصور. وبحسب تعبير «سارتر» ـ «أنا أشكل فترة معينة إلى جانب «مالرو»، في مكان ما» ـ جميعنا، نحن الذين ولدنا قبل نحو سنة ١٩٧٠، نشكل قرناً. نشكل ذلك، طبعاً، بذاكرة النازية، والستالينية، والمحرقة، وهيروشيما، وحرب الجزائر، لكن نشكله أكثر باليقين الذي تعنينا به هذه المآسي، والذي يجعلنا مسؤولين عنها.

بهذا الانطباع ـ سريعة جداً كانت تحولات المجتمع ـ أن نكون أطفالاً في رواية لـ«جيونو» وراشدين في فيلم خيال علمي. لكن ما يوحدنا أكثر، ربما، هو أحاسيس لن نفكر أبداً في تحديدها، طالما ظلت هي نمط عيشنا إلى حدود اللحظة الراهنة. هو هذا التأني وهذا الصمت اللذان انتشرا خِلال الخمسينيات عندما كنا ما نزال نعيش في ظل ندرة الأشياء، وهذه الكلمة التي انبجست خلال السبعينيات في كل مكان، في الأقسام، وعلى الجدران، والنقاش باعتباره

نمطاً وجودياً، وهذا الإحساس بـ«عالم جديد» كنا نستشعره خلال المساء في مقاطعة «أرديش» حول نارٍ وعازف قيثارة، بينما للأطفال الحق في أن يفعلوا ما شاؤوا. وهذه القسوة الناتجة عن الثمانينيات، والقبول بما هو قائم، يتواصلان في الصمت المطبق الذي يستقبل صوت الإقصاء الرهيب داخل الميترو كل يوم.

عما قريب، لن تخبر الصور والكلمات، التي كانت تملأ رؤوس الجميع، أي أحد بأي شيء. لن نتذكر، خلال القرن المقبل، وزرة الثانوية، وعطورا راقية تحمل حرف «J» مثل كلمة «joie»، و«جوني هاليداي» في أغنيته «إلى أين أنت ذاهب، يا جوني؟»، وماسات «بوكاسا»، وبلابل «ميتيران»، وخرفان «لارزاك»، و«غابريل روسيي»، و«فهمتك»، و«اخرس يا إلكاباش»، وإشهار «تغيرون، غيروا كيلتون»، وفستان «مونيكا لوينسكي»، والسماء البيضاء وحرارة صيف سنة ١٩٧٦. لن نعرف ما كانه اللفت الأصفر، والقطاع الفرنسي للعمال الأميين، وهدية «بونيكس»، والمجهِضة، ومجلة «بيف غادجيت»، والأم العازبة، و«باتريك بوافر دارفور».

لا أحد سيتذكر «جين كالمان».

أنا أيضاً سأنسى ما دفعني إلى كتابة كل هذا، أي هذا الإحساس بالحرمان، بالفراغ بين قرنين، هذا الذي ينغلق على حاشية حياتنا، والآخر الهائل الذي سيكون قرن موتي بكل تأكيد.

# الفهرس

آني إرنو والكتابة الحميمية ........................ ٧
شغف بسيط ............................ ١٣
لايبزيغ، عبور ............................ ٦٥
من ضفة القرن الأخرى ........................ ٧٧

## هذا الكتاب

«شغف بسيط» وعلى الرغم من «بساطة» الكتابة، تنجح فعلا في طرح العديد من هذه الأسئلة الوجودية التي تلفنا، تعرف كيف تطرح السؤال «الفلسفي» حول علاقتنا بالآخر، بالجنس، وحتى بكتابة هذه القضية الجنسية، التي تسيطر على غريزة الإنسان والتي هي «المحرّك» الأكبر للكثير من دوافعه.

الغلاف : سكينة صلوَن

ISBN 978-9922605197
9 789922 605197

